
الطبعة
الثانية
الصُّعود إلى
الهَاوية
من ملفات المخابرات المصرية
صَالح مُرسِي
دار نهضة مصر
للنشر

من ملفات المخابرات المصرية

الصُّعود إلى الهَاوية

عالم من السهل الانزلاق فيه، يصطاد القائمون عليه شخصيات بِسمات لا تخطئها عيونهم.

يبحثون عن فريستهم ربما وسط المحطمين، أو الراغبين في الثراء السريع، أو ربما المقامرين والانتهازيين القابلين لبيع أي شيء وكل شيء.

هكذا هو عالم الجاسوسية و قصصه الذي اختار لنا منه الأديب الراحل صالح مرسي عددًا من وقائع ملفات أجهزة المخابرات المصرية في حربها القديمة التي لن تنتهي مع إسرائيل.

ربما تظن أن الوقت قد فات لتتعرف على تلك الحكايات التي حدثت في مصر منذ منتصف خمسينيات القرن الماضي و حتى اندلاع حرب أكتوبر عام 1973، ولكن العكس صحيح فالوقت لم يفت لتتعرف هذا العالم وأسراره فتدرك كيف عليك أن تحمي الحاضر.

الناشر

تصميم الغلاف.. كريم آدم







الصعود إلى الهاوية

تأليف

صالح مرسي



العنـــوان:

الصعـــود إلـــى الهاويـــة

تأليـــف:

صالـــح مرســـي

إشـراف عـــام:

داليـــا محمـــــد إبراهيـــم



الترقيم الدولي: 7-4357-14-977-978
رقـم الإيـداع: 10730 / 2013
الطبعـة الثانيـة: أكتوبـر 2013

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة
تليفـون: 33466434 - 33472864 02
فاكـس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

الصعود

إلى الهاوية

كلمة قبل أن تقرأ الكتاب

ترددت كثيرًا قبل أن أقدم على كتابة هذه السطور.

وعندما فكرت، وكان هذا قبل بضع سنوات، في دفع الكتاب إلى الطبعة الثانية... كان أول ما خطر لي، هو إعادة صياغة هذه القصص، أو بمعنى أدق، هذه العمليات التي يضمها الكتاب مرة أخرى!

ذلك أني عندما كتبتها، ونشرتها في مجلة «المصور»، ثم جمعتها في كتاب - وكان هذا منذ ثلاثة عشر عامًا - كنت لا أزال في أول هذا الطريق الشائك الذي قدر لي أن أخوض فيه... وأنا اليوم، عندما أنظر إلى الوراء، إلى ما يزيد على سبعة عشر عامًا - في بدء تعرفي على هذا العالم- أجد الأفكار تتزاحم في رأسي، بل تتدافع في عنف يزيد من حدته، تدافع الذكريات معها!!

كانت الرحلة جد شاقة... وهي، ككل رحلة مثمرة، فيها ما يبعث على الفخر والسرور، وفيها أيضًا ما يبعث على الألم... تبدو لي تلك السنوات الآن، وكأنها حياة كاملة... حياة يولد فيها الإنسان دون أن يؤخذ رأيه... ولكن نهاية الرحلة هنا، في يد الإنسان نفسه، يستطيع

أن يستمر فيها، ويستطيع إذا ما أحس أنه أدى ما عليه، أن يتوقف كي يفسح الطريق، ويترك المجال لمن سوف يأتي من بعده، كي يكمل السير في الطريق!!

غير أن الرحلة - بكل ما فيها من سعادة وألم - تبدو دون أدنى شك - بالغة الثراء... أضافت إليَّ الكثير، وتعلمت منها ما لم يخطر ببالي أني سأتعلمه يومًا... خضت في عالم لم أتصور - قبل أن ألتقي ذلك الشاب الفارع الطويل الذي أطلقت عليه في مقدمة الطبعة الأولى اسم السيد «خالد» - أن أخوض فيه، أو حتى أتعرف عليه!

قادتني هذه الرحلة من عالم إلى عالم آخر... من عالم يعيشه الملايين من البشر، إلى عالم يعيشه الخاصة من ذوي القدرات الفذة والعقول المدربة الذكية والإرادة الحديدية... من عالم الفن والأدب بكل ما فيه من انطلاق وحرية، إلى عالم تصبح فيه الخطوة - بل الكلمة - محسوبة حسابًا بالغ الدقة، وكأن الإنسان يكتب فوق ورق ملغوم!!

في خلال الرحلة، وفي عام من أعوامها، وجدتني أخوض تجربة بالغة المشقة... وأنا اليوم إذا ما أردت توصيف تلك المرحلة التي خطوت فيها الخطوات الأولى فيما يطلق عليه اليوم في العالم العربي اسم: «أدب التجسس»... لا أجد ما أقوله سوى أن إقدامي على تلك التجربة كان مفعمًا بحماس بلا حدود، كانت إضافة مجال جديد للأدب العربي شيئًا يبدو لي مبهرًا. غير أن دليلي في كل ما خضت من تجارب ومتاعب، كان كلمة واحدة، هي: مصر!

لذلك - هكذا كنت أقول لنفسي - فلتكن مصر هي شفيعي إن كنت قد قصرت، وليكن ولائي لها هو وسامي إن كنت قد استطعت أن أحقق ولو خطوة واحدة.

وعلى كل...

فلقد كانت البداية هنا... بين دفتي هذا الكتاب الذي بين يديك الآن، كانت البداية هي تلك المجموعة من القضايا أو العمليات التي كتبتها دون أدنى محاولة مني لإضافة ولو قليل من الخيال... ذلك الخيال الذي يضفي على «واقع» الأمر قليلًا من الطراوة - إن صح التعبير - لتخفيف حدة الهجير الذي يصطلي به كل من يعمل في هذا الحقل.

لم أكن يومها - يوم أن كتبت هذه المجموعة - قد فكرت، ولم يخطر ببالي، ولم أحاول أن أكتب أدبًا... كل ما كنت أملكه، هو استخدام أسلوب الأديب في العرض... فلقد كنت أشعر بالوجل وأنا أقترب من هذا الميدان البالغ التعقيد... كما كانت معرفتي به جد قليلة، وإلمامي بقوانينه بالغ التواضع... كما أن «الإحساس» بالموضوع - وهذا في رأيي أهم مشكلات الكاتب - كان مفتقدًا... تلك كانت سنوات الدهشة والانبهار والتحصيل والانكباب والخوف والترقب والتوتر معا... كانت سنوات المكابدة لما كان يعتمل في نفسي دون أن أدركه بوعي، يقودني نحو قدر بالقطع كان مخططًا، ومهما كانت الآلام، ومهما كانت المتاعب أو المشقة... ومهما بلغ النجاح من مدى، فأنا بهذا القدر فخور!!

لذلك... فعندما حان وقت دفع الكتاب إلى الطبعة الثانية، فكرت في أن أعيد صياغة هذه القصص أو القضايا، مستهديًا بما أضيف إليّ من معرفة - ما زالت متواضعة - والأهم، بما أضيف إليّ من خبرة!

لقد كانت قضية «الخيال» في هذه القصص، من القضايا التي أثارت الكثير من الجدل والتساؤل، ولقد كان السؤال التقليدي الذي كنت أواجهه، هو:

«هل حدث هذا فعلًا؟؟!»

فإذا ما أجبت بالإيجاب، كان السؤال التالي:

«بكل ما فيه من تفاصيل؟!»

فإذا ما كان جوابي بنعم، عاد السؤال يلح:

«أليس هناك شيء من خيال؟!»

ولقد كان السؤال - بكل المعاني - منطقيًا... غير أن الأمر لم يقتصر على القارئ العادي، بل إن نفس السؤال كان يطرحه عليّ أصدقاء وأساتذة من المثقفين والأدباء والزملاء والصحفيين في رغبة حارة لمعرفة الحقيقة... ووصل الأمر - في ساحة الأدب - إلى حد إنكار البعض لمحاولاتي في «الحفار» و«رأفت الهجان» و«سامية فهمي»، أن يكون لها نصيب من الأدب... حتى إذا ما التقيت ذات مساء أستاذًا ممن تعلمنا على أيديهم الكثير، فإذا به يسألني نفس السؤال... ولم أدر بم أجيب، فلقد بدا لي الأمر باعثًا على الشفقة... ذلك أن أي عملية من عمليات المخابرات، حتى ولو كانت تنشر كعملية مخابرات خالصة

لا دخل للأدب فيها، من المحال أن تنشر كما حدثت ووقعت... ذلك أن هناك مناطق محرمة لا يفرط فيها أي جهاز للمخابرات في العالم مهما بلغت درجة ما يطلقون عليه اسم «حرية النشر» في أي دولة من دول العالم... تلك مناطق تمس أمن الدولة مسًّا مباشرًا... وتصبح هناك - بناءً على اختفاء هذه المناطق أو إخفائها - فجوات في السياق لا بد للفن أن يملأها وأن يصوغها في اتساق مع بقية الأحداث حتى يصبح من المتعذر بعده أن نفرق بين ما حدث فعلًا وما أضيف أو استجد.

ثم يبقى شيء هام يحسم القضية تمامًا...

يبقى أن ننتبه إلى حقيقة بالغة البساطة... وهي أن الخيال المضاف، مهما بلغت نسبته، فإنما هو نابع من «الواقع» نفسه، أي من العملية وموضوعها وظروفها ومناخها... وبهذا المنطق، نستطيع القول: إن الصياغة الأدبية لا تقتطع من الواقع شيئًا، ولا تضيف إليه إلا بمقدار ما يعطيها!!

وحتى بدأت تجربتي الأولى في رواية «الحفار». كانت كل الكتابات التي وقعت في يدي، والتي تتحدث عن هذا المجال، لا تتعدى نوعين:

النوع الأول، هي الكتابات التسجيلية... وهي تلك التي يعرض فيها الكاتب لقضية ما، أو حدث، أو أحداث وقعت بالفعل بغرض التسجيل التاريخي... ولعل أشهر كتابين والأقرب إلى الذهن، هما كتابا «صائد الجواسيس» لبيتر رايت، و«القناع» لبوب وود وارد... وهذا النوع بالطبع ليس أدبًا ولا يمت إلى الأدب بصلة، ولا علاقة له به.

أما النوع الثاني، فهو النوع الخيالي الذي برع فيه الكاتب البريطاني «إيان فليمنج»... وهو نوع من الأدب، يقترب إلى حد ما من القصص البوليسي - رغم الاختلاف البين بين المنهجين في الكتابة - ولقد ابتكر إيان فليمنج شخصية «جيمس بوند» أو العميل «007»، وهذا النوع من الروايات لا ظل له من واقع، فهو يعتمد على أحداث خيالية، وموضوعات اختلقها المؤلف وعالجها بأسلوب مثير... وإن كنت أرى أن السيد فليمنج، قد استفاد فائدة عظمى من عمله كضابط مخابرات قبل أن يحترف الكتابة... كما أنه - من وجهة نظري - أفاد حقل المخابرات والتجسس بتلك المبتكرات التي كانت - وقت كتابته لتلك القصص - ضربًا من خيال، تخطاه الواقع الآن بفراسخ!

هذان هما النوعان اللذان عرفتهما قبل أن أخوض تجربة الأدب في هذا المجال.

وكان السؤال الذي طرحته على نفسي عندما بدأت كتابة «الحفار» هو:

هل من الممكن تحويل الواقع إلى أدب؟!

هل من الممكن خلق «رواية» تعتمد على ما حدث «موثقًا»؟!

كان هذا هو السؤال.

وكان أيضًا هو التحدي الذي قررت خوض غماره بعد «الحفَّار» في «رأفت الهجان» و«سامية فهمي». وكانت التجربة صعبة بحق، لا لشيء... إلا لأني أردت إعلاء منطق الواقع حرصًا مني عليه. كانت

المراجع فوق مكتبي تتزايد يومًا بعد يوم، والحاجة إلى دقة التاريخ لا تترك لي وقتًا للتنفس، ومزج الواقع بالصياغة الفنية تتزايد صعوبته صفحة بعد أخرى. ولكن التجربة، في النهاية، خرجت إلى الناس كخطوة أولى حاولت فيها أن أشق للأدب العربي طريقًا جديدًا!

وكان أن اختلفت الرؤى...

كان هناك رأي يرفض أن يكون «هذا» أدبًا بأي معنى من المعاني!

وكان هناك من يرى أن هذا أدب خالص، وأن اعتماده على الواقع زاده ثراء... وبقيت القضية قائمة..

ولذلك.. وعندما فكرت في «إعادة صياغة» هذه المجموعة التي يضمها الكتاب، أحسست أن هذا قد يكون نوعًا من الاحتيال...

فلو قدِّر لي مثلًا أن أعيد صياغة قصة مَنْ أطلقت عليها اسم «عبلة كامل» في قصة «الصعود إلى الهاوية» وسمحت لنفسي أن أكتبها من جديد، لجاءت الآن شيئًا مختلفًا تمام الاختلاف عن هذه التي تضمها صفحات الكتاب... سوف تكون الأحداث هي هي، والوقائع هي هي، البداية هي البداية والنهاية هي النهاية... ولكن الممارسة والمذاكرة واستيعاب الجو والإحساس ومعرفة القوانين والأعراف وحتى لغة التخاطب مع الخبرة، سوف تضيف دون أدنى شك إلى الأسلوب والبناء الكثير من الاختلاف والكثير من الرونق أيضًا!

ثم ... ...

ثم يبقى بالنسبة إلي ما هو أهم... سوف يبقى أن إعادة الصياغة سوف تطمس تلك الخطوة الأولى التي خطوتها في هذا النوع من القصص، وهذا ضرب من التزوير آباه على نفسي كما آباه على القارئ... أن الخطوة الأولى مهما كانت متواضعة، هي دليل ومرشد لذلك الطريق الذي يخطه الأديب لنفسه منذ أن يمسك بالقلم، وحتى يسقط القلم من يده.

وهناك بعد كل هذا، قضية أخيرة... وهي قضية تلك التسمية التي أطلقها البعض على هذا النوع من الأدب، وهي: «أدب التجسس»!

وهي تسمية أراها - إن سمح لي هؤلاء البعض - غير ذات موضوع.

ففي بداية حياتي الأدبية، ولقد كنت قبلها بحارًا، كانت القصص التي كتبتها والتي قدمتني إلى القارئ، تدور أحداثها في البحر وفي مجتمع الصيادين... كنت في حقيقة الأمر محظوظًا إلى حد بعيد... فلقد احتفى القرّاء والنقّاد معًا بتلك القصص احتفاءً كان زادًا لي في السنوات التالية... وكان أن أطلقوا على قصصي ورواياتي اسم «أدب البحر»، كما أطلقوا عليّ اسم «أديب البحر».

ولم أهتم وقتها بتلك التسمية، بل، ربما أسعدتني لأنها ميّزتني وسط أبناء جيلي من الأدباء... غير أن التجربة، والسنوات، والنضج، جعلتني أتساءل: لماذا لم نطلق هذه التسمية على العملاق الأمريكي «هيرمان ميلفيل» صاحب «موبي ديك» و«بللي بد» وغيرهما من القصص

والروايات رغم أن ميلفيل تخصص فعلًا في الكتابة عن البحر؟!... كما لم تطلق هذه التسمية على علم من أعلام الأدب الإنجليزي هو «جوزيف كونراد» وقد تخصص هو أيضًا في الكتابة عن البحر... بل عُرف كل منهما عا . أنه علم من أعلام «الأدب الإنجليزي»، تُدْرس أعمالهما، وتدرَّس على أنها أدب فقط دون تسمية!

إن البحر شأنه شأن الحياة في المدن والقرى والمصانع والمحاجر، نوع من أنواع النشاط الإنساني... كما أن التجسس - أيضًا - نوع من أنواع النشاط الإنساني... بل ربما كان واحدًا من أقدم النشاطات الإنسانية على الإطلاق!

كل ما في الأمر، أن قصص البحر كانت جديدة على الأدب العربي.

كما أن هذه القصص التي تدور في حقول المخابرات وعالم التجسس جاءت جديدة أيضًا على الأدب العربي.

وبعد...

فليس فيما سبق من سطور دفاع عن هذا النوع من القصص، بل، فقط، هو محاولة لتوضيح الأمور لمن يريد مزيدًا من التوضيح أو الإيضاح، وهو طرح لوجهة نظر للبعض حرية قبولها أو رفضها... فيكفيني في هذا المجال، شرف المحاولة!

ومَن يدري؟..

فلربما جاء من بعدي أديب يرسي دعائم هذا النوع من الأدب، ويحسم الخلاف في الرأي بين هؤلاء وأولئك... وقتها، لن تجدوا فوق سطح الأرض، مَن هو أسعد مني.

صالح مرسي

الإسكندرية - 27/ مايو/ 1991

وسقط القناع
عن وجه الغريب





وسقط القناع عن وجه الغريب

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحًا.. وكان الطريق الطويل المحاذي لقصر القبة يبدو خاليًا إلا من سيارة تسير هنا أو هناك.. ثمة جو يخيم على البلد كله، وهزيمة يونيو لم تطو بعد عامها الأول.. وفي مكان خالٍ من المباني، توقفت سيارة تحمل أرقام أجرة القاهرة.. ونظر السائق إلى راكبه الغريب وهو يمسح المكان بعينيه في دهشة.. إلى أين يذهب هذا الراكب ذو الجسد المدكوك والوجه المكتنز والعينين اللامعتين، غير أنه تناول أجره ومضى تاركًا ذلك الشاب يقف وسط الشارع وحده.. وراح صاحبنا بعد أن مضت السيارة وابتعدت يمسح الطريق بعينيه يمنة ويسرة.. كان يرتدي بذلة كاملة، والجو ربيعي بارد، وعيناه تمدان أذرع البصر إلى ذلك المبنى القابع خلف أسوار الصمت.. كان هذا المبنى بالذات هو وجهته.. وكان قبل أن يدخله لأول مرة، يريد أن يطمئن أن أحدًا لا يتبعه أو يراه.

ملأ صدره بالهواء بعد أن اطمأن، وبدأ مسيرته، وعند بوابة المبنى «مبنى المخابرات العامة المصرية» توقف، ولمعت عيناه ببريق غريب..

أغلب الظن أن قلبه كان يدق في تلك اللحظة بسرعة أكثر من المعتاد.. وأغلب الظن أنه تذكر البداية التي قادته في ذلك الصباح إلى هنا..

ولقد كانت البداية هناك.. في اليمن.

وعندما استدعي الملازم أول «ماهر» مع كتيبته في النصف الثاني من مايو 1967 كان مستغرقًا في تدريب جنوده على «ضرب النار» تمهيدًا لدخول إحدى مسابقات الرماية.. وكان أمله أن تفوز الكتيبة بالمركز الأول في هذه المسابقة.. غير أن أمر الاستدعاء جاء ليحمله إلى ظهر سفينة أقلعت بهم من ميناء الحُدَيدة في أقصي جنوب البحر الأحمر إلى الشمال.

ولقد وصلت السفينة إلى الأدبية وعبر «ماهر» مع كتيبته القناة إلى سيناء، وتحركت بهم السيارة لتقطع شبه الجزيرة العزيزة من غربها إلى أقصى الشرق فيها.. إلى مسافة قريبة جدًّا من الحدود الإسرائيلية.

وكان هذا يوم 3 يونيو عام 1967..

وكان عليهم أن يقضوا يومي 3، 4 يونيو في تجهيز مواقعهم.. وفي حماس راح الجميع يعملون... غير أن ضابطنا الصغير السن والرتبة، كان يتملكه في ذلك الوقت – مثله مثل باقي الرجال – إحساس غامر بالعزة.. إحساس غذته تلك المدمرات التي كانت تحيط بالسفينة في رحلتها من ا لجنوب إلى الشمال، وتلك الغواصات التي كانت تحميها طوال الطريق تحت الماء، ومشهد الطائرات التي كانت تحوم حولها في السماء.

غير أن صباح 5 يونيو جاء ليهدم كل شيء ها هي الصحراء أمامه بلا نهاية، الشمس والحرارة والرمال والجبال والأقدام تخوض في بحار

من الحصى والصخور الملتهبة والإحساس العميق بالهزيمة.. الجوع لا يهم لكن العطش كان مأساة المآسي.. ساعة بعد ساعة كان يتجه غربًا.. ولكن كان عليه أن يتجنب جنود العدو الذين سيطروا على شبه الجزيرة العزيزة، أكثر ما كان يضنيه ويعذبه أنه لم يكن يعرف شيئًا... لا شيء سوى السماء يسيطر عليها الطيران الإسرائيلي فأين ذهب طيران مصر؟.. لا شيء سوى صحراء يسيطر عليها الفزع وجنود العدو ينعمون بالغلبة لكن سلاحه على كتفه... فهل يموت من العطش؟ أم يترك نفسه للأسر؟.. أم هناك طريق ثالث؟..

كان الطريق الثالث هو الثقة في السلاح.

ما أسهل أن يلقي نفسه على الأرض ويترك للعدو فرصة أن يأسره وليكن بعدها ما يكون، أصبح عليه أن يختفي طوال النهار في صخور الشاطئ - وكان قد استطاع الوصول إلى خليج السويس - دون أقل حركة.. الظلال والحرارة والعطش والطائرات لا تختفي من السماء وكان عليه أن يتحول دون طعام أو شراب إلى صنم.. حتى إذا جاء الليل هبط إلى المياه وراح يخوض فيها سعيًا نحو الشمال، نحو قناة السويس.

الحديث يبدو مثل قصة سينمائية، ولكن آثار الجروح في جسده علامة صدق لا تخطئها عين.. في كتفه شظايا دانات أطلقت عليه أو بالقرب منه، في مفصل ساقه ثلاث رصاصات.. استأصلوا بعد ذلك إحدى كليتيه كما استأصلوا جزءًا من طحاله، وفقد أيضًا ضلعه السابع.. ورغم كل ذلك فلم يكن يشعر بالألم.

لم يعد باقيًا فيه - بعد أن مرض الجسد - سوى العقل، وبالعقل استطاع أن يصل إلى السويس في أحد أيام العشرينيات من يونيو.. شبحًا كان أم جنديًّا جريحًا؟ وإذا نفس اللنش الذي كان يسحب السفينة التي أقلعته من اليمن عندما دخلت ميناء الأدبية، هو هو نفس اللنش الذي انتشله من المياه وهو بين الحياة والموت.. انتشله جسدًا مزقته الرصاصات والشظايا، وعينان تبرقان بآلاف الأسئلة.. كانت كلها تبدأ بكلمة: لماذا؟..

غير أن لحظة واحدة كانت مثل وسام يوضع على صدر ذلك الضابط الصغير الذي لم يكن يتعدى في ذلك الوقت الخامسة والعشرين من العمر.. تلك اللحظة التي اختفى فيها الألم، وغابت عن الذهن الإصابات والجروح، وتقهقرت الأسئلة إلى حين، تلك اللحظة التي وقع فيها، وفي جسده ما فيه، في أحد أكشاك الشرطة العسكرية في ميناء الأدبية ليسلم لهم سلاحه الذي أؤتمن عليه.

■ ■ ■

بعد ذلك بدأت مرحلة آلام من نوع آخر.. من مستشفى إلى مستشفى، كان ينتقل من غرفة عمليات إلى غرفة أخرى، ومن طبيب إلى طبيب.. وليست آلام الجسد هي ما كان يشعر به «ماهر»، لكنها آلام أشد وأقسى.. ويوم أن صدر قرار من المجلس الطبي العسكري أنه أصبح لا يصلح الآن لأن يكون ضابطًا محاربًا، كاد يفقد هذا الشيء الذي كان دائمًا يعتز به.. كاد يفقد عقله.

وعلى كلٍّ.. فقد توصلت إدارة شئون الضباط ذات يوم إلى حل وسط.. أن يخدم «ماهر» في وحدة حراسة.

ولم يكن أمام صاحبنا سوى طريق واحد.. أن يوافق.

السخط والضيق والعذاب لا تزال الأسئلة تطن في رأسه فراح يبحث عن إجابات.

وذات يوم دخل أحد المستشفيات وقد كانت الآلام تمزقه.. ذات صباح وجد نفسه في صالة مليئة بالمرضى وكان عليه أن يجلس حتى يأتي عليه الدور.. فأي دور هذا الذي يجب أن ينتظره مقاتل فقد أجزاء من جسده.. صاح وصخب وثار وكان عليه أن يجلس في النهاية فوجد مقعدًا جلس فيه.. بجواره طالعه وجه تركي الملامح أبيض الشارب ترتسم على الشفتين منه ابتسامة حنون.. مال عليه صاحب الوجه التركي وتحدث إليه وأخذه على كفوف الراحة.. قدم له نفسه.. فقدم له هذا الذي سوف نطلق عليه اسم «الغريب» نفسه.

■ ■ ■

ورغم أن اسم هذا العميل الإسرائيلي قد نشر في الصحف منذ سنوات، رغم أنه حوكم وأدين وصدر ضده حكم، فلقد كان من المستحيل تمامًا أن أحصل على إذن بنشر اسمه.. كان من المستحيل تمامًا رغم كل الحجج التي سقتها إليهم.. فهم هناك.. هؤلاء الرجال الذين يقبعون خلف أسوار الصمت يضعون للعوامل الإنسانية كل اعتبار.. إن لهذا الرجل الذي خان الأمانة زوجة لا ذنب لها، إن له أبناء يحملون

اسمه لأنه أبوهم يعيشون كأي مواطنين شرفاء لأنهم لم يقترفوا إثمًا، فلماذا.. لماذا نحيي ما مضى وقد نال المخطئ جزاءه.. ولولا ارتباطه بقصة «ماهر»، لما أثيرت هذه القضية مرة أخرى.

■ ■ ■

كان «ماهر» لا يعرف في ذلك اليوم - وهو يجلس في إحدى قاعات ذلك المستشفى العسكري، بجوار ذلك «الغريب» ذي الابتسامة المطمئنة - أنه يخطو خطوته الأولى نحو هذا العالم الرهيب.. عالم الجاسوسية.

ولقد كانت تلك اللحظة الأولى التي وقف فيها الملازم أول «ماهر» أمام حارس مبنى المخابرات العامة المصرية، نقطة تحول رهيبة في حياته.. لم يكن يدري أنه بعد ساعة من الزمن، سوف يصبح إنسانًا آخر، وسوف يدخل إلى بوتقة شديدة الحرارة، بوتقة تنصهر فيها حياته كلها.. كان الماضي بكل الآلام بكل الأحلام، ليتشكل من جديد، ليصبح إنسانًا آخر..

سأله الحارس عما يريد، فقال باختصار:

«عاوز أقابل مسئول».

وهناك في هذا المبنى.. الذي يعرف رجاله كيف يعاملون أعتى الرجال دهاءً في العالم.. لم يكن من الصعب عليهم أن يتعاملوا مع «ماهر»، وأن يستقبلوه.

■ ■ ■

جلس «ماهر» أمام ضابط المخابرات المصري في غرفة مغلقة، فأحس بالراحة وقال:

«لقد جندتني مخابرات إسرائيل».

«أغرب ما حدث أن هذا الضابط الشاب الهادئ الملامح المحدد القسمات الذي استقبله في تلك الغرفة شديدة الهدوء والصمت، لم يطرف له جفن، ولم ينطق.. هؤلاء الرجال لا يتكلمون كثيرًا، لكنهم يعرفون كيف يجيدون الاستماع.

تنهد «ماهر» - إذن - وبدأ يحكي قصته.

▪ ▪ ▪

في ذلك اليوم، في تلك القاعة، في أحد المستشفيات العسكرية، جلس «ماهر» بجوار الغريب.. ولقد كان «الغريب» عربيًا جاء إلى مصر طالبًا حق اللجوء السياسي فمنح إياه.

وكان قد ذهب إلى ذلك المستشفى في ذلك اليوم بدعوى الوطنية للاطمئنان على جرحى المعارك من الضباط والجنود.. وكان بارعًا في تهدئة «ماهر» الثائر الرافض للانتظار في الدور مثله مثل أي مصاب بالتهاب في اللوزتين. كما كان بارعًا في مد جسر الصداقة والتعارف مع هذا الضابط المتفجر بالحماس والوطنية.. وقبل أن يغادره «ماهر» كان على موعد معه في اليوم التالي.

حقيقة هامة لا سبيل إلى إنكارها.. أن الضابط المصري الشاب، أحب «الغريب» حبًا حقيقيًا.. التقت ميولهما معًا، وتناسقت أفكارهما، وكان موضوع الهزيمة - بطبيعة الحال - مثارًا لكثير من المناقشات بينهما.. مناقشات كانت تستمر طوال الليل يجمعهما دفء البيت أحيانًا، أو صخب النوادي الليلية بكل ما فيها من مرح!!

ذات يوم قال «ماهر» للغريب إنه يكتب كتابًا عن حرب 1967..

ولأن الغريب كان لاجئًا سياسيًا، فلقد كان يزعم أنه على علاقة بالكثيرين من المسئولين في مواقع سياسية، ومواقع وزارية.. لذلك فعندما وعد «الغريب» صديقه بأن يتحدث في أمر كتابه هذا مع بعض المسئولين، أحس «ماهر» وكأن طاقة في السماء قد فتحت له.. انكب على كتابه ليكمل فصوله.. راح يعمل في حماس يصل فيه الليل بالنهار.. وإذا كان للغريب أقارب يعيشون في ألمانيا الغربية، فلقد كان يزورهم بين الحين والحين، وعندما سافر ذات مرة لزيارتهم وعاد.. كان «ماهر» قد انتهى من الكتاب وكان على «الغريب» أن يخطو خطوته التي وعد بها ذات يوم، فاتصل بوزير الثقافة في ذلك الوقت والتقى به ليحدثه في أمر الكتاب.. ثم عاد إلى «ماهر» وملامحه تنطق بالفشل.. لقد رفض نشر الكتاب.

وازداد سخط «ماهر» وتبرمه، وازدادت ثورته وضيقه.. وعندما سأله الغريب في صوت هادئ:

لماذا لا تنشر الكتاب في الخارج ما دام نشره في القاهرة متعذرًا؟

وافق «ماهر» دون تردد!!

في تلك الأيام.. لم يكن «ماهر» قد تمرّس بتلك الأساليب الخفية التي تتبع عادة في الحرب السرية.. سافر «الغريب» ذات مرة إلى الخارج، وعاد يزف إليه نبأ هامًا لقد استطاع أن يتعاقد مع ناشر ألماني وافق على نشر الكتاب.

وكاد «ماهر» يطير من الفرح.

ولكن... إذا كان هذا الناشر من ألمانيا الغربية، فكيف ينشر كتابًا هو في واقع الأمر يدين إسرائيل ويكشف حقيقة انتصارها المزيف.. في الوقت الذي كانت فيه ألمانيا الغربية ضالعة مع إسرائيل علانية.

بذور الشك كانت تنبت ولكن الأحداث أيضًا كانت تتلاحق ويوم أن وصل إلى القاهرة مندوب عن دار النشر الألمانية جاء خصيصًا لمقابلة «ماهر».. بدأت المسألة جدًّا لا هزل فيه.. وجلس «ماهر» إلى المندوب وقرأ له صفحات من الكتاب فأثنى عليها هذا ثناء عاطرًا..

فسأله «ماهر» فجأة:

«كيف تنشرون كتابًا يدين إسرائيل وأنتم ضالعون معها؟».

وكان الرد جاهزًا بطبيعة الحال:

«أننا هنا لا تعنينا سوى الثقافة والحقيقة، والرأي هناك متاح للجميع.. وإن كان من الممكن أن تعاد صياغة الكتاب حتى يتفق أو يقترب من وجهة النظر الألمانية!!».

أمام هذا العرض الأخير توقف «ماهر».

ما الذي كان يفكر فيه في ذلك الوقت.

أكذب لو قلت إني أستطيع أن أحدد.. غير أني أستطيع من جماع الحوار الذي دار بيني وبينه.. أن أتخيل.. فقط أتخيل.

هل بدأ الشك يساوره وهو يرى الطريق أمامه يفرش بالذهب، ليصنع منه ذلك اللاجئ السياسي جاسوسًا على بلاده؟

إن الإجابة إن لم تكن «نعم»، فإنها بالقطع سوف تكون «محتمل».

وعندما سافر المندوب، لم يعكف «ماهر» على كتابه لإعادة صياغته.. كان أنفه قد بدأ يتشمم تلك الرائحة النفاذة للخيانة.. وضع مجموعة من الاحتمالات وانتظر.

وعندما أعلن «الغريب» أنه سيطير إلى ألمانيا تحقق واحد من احتمالاته، وعندما عاد، بدأ يقطع الشك باليقين.. ومما لا شك فيه أبدًا، أنه كان جسورًا للغاية وهو يخوض اللعبة بشجاعة فائقة.

▪ ▪ ▪

ما إن عاد «الغريب» من ألمانيا، حتى تلهف «ماهر» بالسؤال عن مصير الكتاب، ولم تكن لهفته حقيقية بأي معنى من المعاني، وقال الغريب.. إن الناس هناك في ألمانيا معجبون به أشد الإعجاب، لقد وجدوا فيه خامة عظيمة لشيء أعظم من الكتاب.. وإذا كانت الهزيمة قد حدثت فمن كان المتسبب فيها سوى الشيوعيين؟

صمت الغريب، وقال «ماهر»: تمام.

ولقد كان العرض مبسطًا ومغريًا!

إنهم يريدون محاربة الشيوعية، وأن بعض المعلومات البسيطة من الممكن أن تكون مفيدة للغاية.. ولا شيء آخر..

ووافق «ماهر»..

وافق وهو واثق بأنه أمر لا يحتاج إلى الكثير من الذكاء لكي يعلم أنه - كضابط في القوات المسلحة، وكساخط على هزيمة لم يتسبب فيها، وكناقم على كل أسباب الخذلان - كان صيدًا ثمينًا.

كانت حرب الاستنزاف قد بدأت.

وكان الغريب قد بدأ في طلب المعلومات، وعندما حان وقت الحديث عن الأجر كان «ماهر» يقطع المسافة في كلمة: «500 جنيه في الشهر».. ثم أضاف: «أنا عاوز مرتب سنة مقدمًا!!» ولو أن إنسانًا آخر غير «ماهر» هو الذي وضِع في هذا الموقف، لما جرؤ على الاستمرار، غير أن هذا الإنسان بالذات، كان يخوض اللعبة متعرِّفًا على كل شيء راصدًا لكل حركة مسجلًا لكل كلمة.. كان يريد أن ينتصر بعد أن هزم هزيمة لا ضلع له فيها... و.. و..

وتوالى وصول المندوبين من ألمانيا الغربية.

وفي علم المخابرات، كان المندوب الذي يأتي يدرس جانبًا من جوانب الجاسوس المبتدئ إنهم يسألونه أسئلة يطلقون عليها اسم

«الأسئلة الاختبارية!».. إنهم بهذه الأسئلة يمتحنون قدراته.. قدراته على الملاحظة والرصد، ورغبته في الإعطاء والإدلاء.

ونجح «ماهر» في الاختبار نجاحًا مذهلًا.

وسلمه «الغريب» ذات يوم ثلاثة آلاف جنيه مرتب نصف سنة.

كان الستار الذي يعملون خلفه الآن قد تحول إلى دار للنشر، لمحاربة الشيوعية.

ولكن.. إلى متى؟

إلي متى يطول الأمر حتى يفصحوا عن الحقيقة.. الحقيقة مجردة؟

ولقد أفصحوا عنها يوم وصلت إلى مصر معدات التجسس.

يوم وصلت الكاميرا المينيكس وأدوات الحبر السري، والأفلام والأوراق.. و...

ويوم وصل جهاز الإرسال اللاسلكي..

يوم سقط القناع نهائيًا عن وجه «الغريب» فإذا به عميل إسرائيل في قلب القاهرة!!

■ ■ ■

كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهرًا.. عندما انتهى «ماهر» من قصته.. وكانت الغرفة لا تزال ساكنة صامتة، وعينا ضابط المخابرات المصري تسمعان، كما كانت أذناه تريان، أما شفتاه فكانتا مطبقتين.

وصمت «ماهر»... ونظر إليه!

وتحركت يد الضابط نحو سماعة التليفون، رفعها إلى أذنه وأدار القرص، ثم ذكر رقمًا بعد دقيقة.. دخل شاب إلى الغرفة، وكان يحمل دوسيهًا قدمه إلى الضابط في صمت ثم انصرف.. وقدم الضابط الدوسيه إلى «ماهر».. وما إن فتحه حتى فغر فاهه دهشة.

■ ■ ■

أغلق «ماهر» عبد الحميد الدوسيه.. ورفع عينيه إلى وجه الضابط الصامت!

لم يكن هناك ما يمكن أن يقوله «ماهر».. كان الدوسيه يحوي كل شيء، تنهد مرتين أو ثلاثًا ارتياحًا، حمد الله أنه جاء في الوقت المناسب، تحولت خلاياه إلى أذن تسمع وعندما مال عليه الضابط، كان «ماهر» على استعداد كامل..

ولقد بسط «خالد» – وهذا هو الاسم الذي نختاره للضابط الأسمر الشاب – المسألة أمام «ماهر»، ثم عرضها عليه.

ففي مثل تلك الحالات لا يصبح أمام جهاز المخابرات سوى طريق من اثنين.. إما أن يبلغ النيابة لتلقي القبض على الجاسوس، وإما أن تطلب من المُبلِّغ – إذا ما رأت فيه ورأى هو في نفسه الصلاحية والقدرة – أن يستمر في التعامل مع العدو لحساب مصر هنا يصبح المبلغ عميلًا مزدوجًا.

وفي ذلك اليوم أصبح «ماهر» عميلًا مزدوجًا.

الذي لا شك فيه، أنك لو جلست إلى «ماهر»، فلسوف يعترف لك أن ثمة دهشة قد أصابته عندما فتح الدوسيه وأطل على ما فيه..

وإني على يقين من أن رعدة قد سرت في جسد «ماهر» كله، وأن رعبًا حقيقيًا قد أصابه في نفس اللحظة التي فتح فيها ذلك الدوسيه واطلع على ما فيه.

لم تكن الرعدة أو ذلك الرعب؛ لأن المفاجأة غير متوقعة، بل لأن الإنسان عادة ما يصاب بهما عندما يكتشف فجأة.. أنه كان يسير طوال الأشهر الماضية، عاريًا من ملابسه!

لم يكن ما يحويه الدوسيه مجرد معلومات عن «ماهر» وعن علاقته بالغريب، لكن الدوسيه كان يحوي «ماهر» كله.. بداخله وخارجه..

ولكي أوضح الأمر قليلًا، فلقد أفلتت من «ماهر» ذات لقاء بيني وبينه جملة تشبثت بها، قال: «على أي حال هم حاولوا معايا بكل الطرق.. بكل الطرق»..

كان يعني بحديثه هذا الإسرائيليين، وأن كل الطرق هذه كانت تحوي بالتأكيد أسرارًا خاصة.. وعندما يعلم «ماهر» من «الغريب» ذات يوم أن مندوبًا سوف يصل من ألمانيا يحمل إليهم أموالًا، فلقد كان من الواجب أن يحتفيا بهذا المندوب، خاصةً إذا ما تصادف وكان المندوب فتاة شقراء زرقاء العينين رائعة الجمال.

كان الإسرائيليون أذكياء، كانوا يعطونه خمسمائة جنيه كل شهر، لكنهم كانوا يفتحون أمامه أبواب الإنفاق على مصاريعها حتى يظل دائمًا

في حاجة إلى المال وإليهم.. ولقد كان شيئًا باهرًا أن يغازل «ماهر» فتاة أعمال شديدة الجدية، شديدة الجمال، تضع على عينيها نظارة طبية تضفي عليها سحرًا أخّاذًا.. فتاة من ذلك النوع الذي تشعر أمامه خاصة إذا ما كنت شرقيًا ومن دولة مهزومة - بالعجز تمامًا - وباستحالة الوصول إليه.

كم أدارت القبلة الأولى رأسه!

خلف زجاج النظارة الطبية تطلعت إليه عينان شديدتا الزرقة، عميقتان كالمحيط زاخرتان بالأسرار، تفيضان بالغموض. تلك الأسرار وذلك الغموض كانت تلهب مشاعر فتانا، وتحوَّل «ماهر» إلى عاشق عظيم خلال الأيام التي أنفقتها «مارلين» في مصر.. حتى إذا سافرت، أحس صاحبنا بالفراغ يحيط بكل شيء، فأحس الغريب، ودفع إلى طريقه بسيدة أخرى صديقة لزوجته وضعها في طريق الشاب الملتهب بالحماس، فنَمَت بينهما قصة حب.. قصة كانت مدعمة بالصور في الدوسيه الذي كان «ماهر» يقلب أوراقه بين يديه.

حتى الآن، كانت المخابرات الإسرائيلية قد وقعت في خطأ فادح.

بداية.. لقد كان انتقاء «ماهر» أو التقاطه شيئًا عظيمًا، فلقد تمثلت فيه كل مقومات الجاسوس العظيم دون شك، كان «لقطة» لا تتكرر في عالم الجاسوسية إلا نادرًا.. ولكن.. لو أن «الغريب» كان «فرَّازًا» متمرسًا واعيًا ملمًّا بدقائق عمله، لما نصح بتجنيد ضابط كماهر، كان قد استطاع رغم كل السخط الذي كان «ماهر» بيديه أن يعرف سر هذا

السخط الذي أصابه.. فلم يكن سخط «ماهر» منصبًا على بلده.. كان السخط منصبًا على أسباب نكسة هذا البلد.. ولو أن الذي التقى بماهر كان «فرّازًا» ماهرًا، ولو أن رجال المخابرات الإسرائيلية الذين وفدوا إلى مصر لمقابلة «ماهر» كانوا متمكنين من عملهم، لنصحوا - بالقطع - بالابتعاد عن هذا الضابط الذي كانت مصر بالنسبة له هي أبده وأزله، هي بدايته ونهايته.. كانت مصر هي عشقه وأمله، فكيف يخونها؟

هنا يمكن لأبسط العقول البشرية ذكاء أن يكتشف الفرق بين المصريين والإسرائيليين وإذا لم نكن في مجال تفاخر، إلا أن الموضوعية تستلزم منا دراسة أسلوب مخابرات كل منهما، لنتعرف على معالم الطريق لا تحيز.. وإذا كان «فراز» الإسرائيليين وضباط اختبارهم قد أخطئوا في اختيار نوع عميلهم، إلا أن «الفراز» المصري اكتشف في نفس الشخص، ملكات تفوق بكثير ملكاته كجاسوس فقط.

ففي ذلك الصباح الربيعي، عرض «خالد» على «ماهر» أن يستمر في اللعبة.. ووافق «ماهر» دون تردد.

في ليلة حارة من ليالي شهر أغسطس، كانت إحدى الطائرات التابعة لشركة «لوفتهانزا» تغادر مطار القاهرة الدولي في طريقها إلى فرانكفورت بألمانيا الغربية.. وعلى الطائرة كانت ثمة سائحة ألمانية تعود إلى وطنها بعد رحلة سياحية استمرت عشرة أيام قضتها السائحة ما بين القاهرة والأقصر - في حر أغسطس - ولم تكن هذه السائحة تحمل سوى حقيبة صغيرة ذات لون أخضر.. كانت الحقيبة أصغر من كل هذا الاهتمام

الذي كان يحوطها من بعيد في سرية وصمت، اهتمام لم يشعر به أحد على الإطلاق.. غير أن الحقيبة الصغيرة كانت تحمل تمثالًا فرعونيًا صغيرًا من تلك التماثيل المقلدة التي يصنعها أحفاد الفراعنة في الصعيد.. ولم تكن الألمانية الجميلة، مهربة آثار لأن التمثال كان بلا قيمة، فوق أن ثمنه كان لا يتعدى الجنيه الواحد.

غير أن أهمية هذا التماثل كانت تكمن في التجويف الذي بداخله، والذي كان يحوي فيلمًا صورت عليه معلومات عسكرية غاية في الأهمية.. وكانت هذه المعلومات تبين بوضوح إحدى الثغرات في صفوف الجيش المصري على الضفة الغربية لقناة السويس.. كانت هذه المعلومات معدة ومصورة بيد «ماهر».

وطوال الرحلة من القاهرة حتى فرانكفورت كانت هذه الفتاة مبتسمة.. بين الحين والحين كانت تقرأ في كتاب يحمل عنوان إحدى مسرحيات الكاتب الأمريكي «آرثر ميللر» ولقد ذهبت - طوال الرحلة - مرتين إلى الحمام، وشربت قهوة سوداء ودخنت تسع عشرة سيجارة، ولم تأكل شيئًا.

وفي مطار فرانكفورت تبادلت مع موظف الجمارك كلمات مجاملة خافتة، ثم حملت حقيبتها الخضراء الثمينة واستقلت إحدى سيارات الأجرة إلى بيتها.. كانت تسكن شقة صغيرة مكونة من غرفة واحدة كبيرة قسّمت إلى غرفة للنوم وأخرى للطعام والمعيشة، وكانت الشقة في الدور الحادي عشر من إحدى العمارات السكنية في المدينة المزدحمة..

ورغم أن الرحلة من القاهرة حتى فرانكفورت كانت طويلة، ورغم أن الفتاة كانت قد غابت عن بيتها عشرة أيام، فإنها لم تمكث فيه لأكثر من نصف ساعة غادرت البيت بعدها ولم تكن تحمل الحقيبة الخضراء، كانت تحمل صندوقًا مغلفًا بورق مصري من ذلك النوع الذي تغلف به الهدايا، كما أنه كان مزدانًا بشريط أحمر من النايلون صنع هو الآخر في مصر.. غير أن المصادفة الغريبة، أن الصندوق كان في حجم التمثال الفرعوني القديم.. وبعد 75 ثانية تمامًا توقفت سيارة أجرة أمام الفتاة فركبت، وحملتها السيارة إلى ڤيلًا في إحدى الضواحي..

كانت الڤيلًا تقبع فوق ربوة منعزلة تحيط بها حديقة صغيرة زرعت بها بعض الورود الثمينة، التي كان يحرسها ثلاثة من الكلاب الإلزاسية المتوحشة.. ولقد اختفت الفتاة داخل الڤيلًا وبعد أربع عشرة دقيقة غادر الڤيلّا رجل خط الشيب شعره، لكنه كان بادي القوة، يحمل حقيبة سفر صغيرة، واستقل الرجل سيارة مرسيدس كانت تقف أمام الڤيلًا وغادرها في المطار دون أن يعنى بإغلاقها.. وعندما وقف أمام ضابط الجوازات، اتضح أنه يحمل جواز سفر إسرائيليًا، وكان مسافرًا في نفس الليلة على إحدى طائرات شركة «العال» المتجهة إلى تل أبيب.

ولقد حدث بعد ذلك بيوم أو اثنين، أن صدرت أوامر سرية بانسحاب إحدى نقط الحراسة على الضفة الغربية لقناة السويس التي كانت تربط بين موقعين مدججين بالسلاح.. صدر الأمر بإتمام الانسحاب نهارًا وترك ذلك المكان خاليًا..

وعلى الضفة الأخرى من قناة السويس - بعد ذلك بعدد لا بأس به من الأيام والليالي المظلمة - كانت ثمة حركة غير عادية قد بدأت عندما اقتربت الساعة من الحادية عشرة والنصف... كان من الواضح أن هذه الحركة لأشباح تسللت إلى المياه في هدوء مثير.. وعلى طول الشاطئ ولمسافة معينة، كانت الأشباح تهبط من الضفة الشرقية إلى مياه القناة لتعبرها إلى الضفة الغربية، وتصعد إليها في نفس المكان الخالي من الحراسة، صعدت الأشباح الآتية من الضفة الشرقية في خفة وانتحت ركنًا تظلله شجيرات كانت تطرح في الماضي فاكهة، وراحوا يستعدون.. حتى إذا اكتمل عددهم وعدتهم، بدأت حركتهم.. كانوا يبدون وكأنهم يعرفون طريقهم بدقة متناهية.. وما إن قطعوا من الطريق أمتارًا.. حتى اهتزت أوراق الشجر لزئير مزق الظلام والصمت معًا.. زئير رجال وطلقات مدافع سريعة ونصال مدى قاتلة.. و.. و.. وكانت المعركة رهيبة، أبيدت فيها الأشباح الآتية من الضفة الشرقية عن آخرها.

في تلك الليلة.. انتفخت أوداج «ماهر» زهوًا... كان قد بدأ يذوق طعم الانتصار.

■ ■ ■

رغم هذا كانت ثقة الإسرائيليين بماهر قد فاقت كل حد.. كان «الغريب» قد تقهقر إلى المركز الثاني، وتقدم «ماهر» إلى المركز الأول ليدير الشبكة إدارة كاملة.. كان الإسرائيليون قد علموه الإرسال اللاسلكي على أحدث الأجهزة التي عرفت حتى هذا الوقت، وكانوا

قد دربوه على الكتابة بالحبر السري!! لكن المصريين عرفوا كيف يستغلون ما علمه الإسرائيليون إياه!!..

ولقد توالى وصول الرسل من ألمانيا - فبعد مارلين وصلت «أورزولا» أو «أوزل شي» كما وصلت «باربرا».. و.. ولقد كن فتيات انتقين بعناية فائقة.. كانت لديهن القدرة على ممارسة الحب كأنهن يذبن غرامًا، في نفس الوقت الذي يحسبن فيه كل حركة وكل سكنة وكل نظرة تصدر عن «ماهر».. وعلى كلٍّ فلم تكن هذه أزمته.. كانت أزمته الحقيقية تكمن في أنه يجب أن يمارس الحب بنفس القدر من الحرارة ولقد كان هذا عسيرًا للغاية، فكيف يمارس الإنسان الحب وهناك عيون ترقبه وهو عارٍ تمامًا؟!!

إن أي تغير في أسلوبه، أو سلوكه، مهما كان ضئيلًا، كان كفيلًا بأن يحسب عليه وأن يبعث بالشك إلى عقول الإسرائيلين.

ولقد كان «خالد» أستاذًا عظيمًا لهذا الجاسوس المبتدئ.. ورغم أني لم أتلق أيه إجابة من «ماهر» عن سؤالي: إن كان قد زار إسرائيل أم لا؟.. فإني على يقين من أنه بالفعل قد زار إسرائيل في تلك الأيام.. وإذا كان «ماهر» قد اكتسب ثقة الإسرائيليين إلى حد أنهم اعتمدوا عليه اعتمادًا كبيرًا.. إلا أنه لم يكتسب الثقة بتلك المعلومات المغلوطة والتي أودت بأرواح الكثيرين من رجالهم.. بل بتخطيط محكم وضعه له «خالد» الذي كان قد تحول مع الأيام من ضابط مخابرات يوجه واحدًا من المتعاونين معه في عملية من أخطر عمليات التجسس إلى أستاذ وصديق

حميم.. كان «خالد» يمد «ماهر» في بعض الأحيان بمعلومات صحيحة تمامًا عن الجبهة المصرية، لكنها معلومات لا خطر منها.. ومما لا شك فيه، أن الإسرائيليين امتحنوا هذه المعلومات وتأكدوا يومًا بعد يوم من صدقها.. وهكذا استحوذ «ماهر» على تلك الثقة..

■ ■ ■

ومضت ثمانية أشهر..

ثمانية أشهر أصبح «ماهر» فيها واحدًا من الجواسيس. الذين تعتمد عليهم إسرائيل في القاهرة اعتمادًا عظيمًا.. ثمانية أشهر أغرقته فيها مخابرات إسرائيل بالمال والهدايا.. ولقد أنتجت مصانع «رولكس» بسويسرا ساعة خصيصًا باسم «ماهر» وجاءته الساعة من سويسرا ومعها «براءة» مطبوعة ومختومة بأرقام سرية تقول إن هذه الساعة صنعت خصيصًا للسيد/ «ماهر».. غير أن الشيء الذي حزن له «ماهر» حزنًا شديدًا هو السيارة..

فذات يوم قرروا إهداءه سيارة جديدة.. زفَّ إليه الغريب الخبر فطار من الفرح.. كان يومها يمتلك سيارة قديمة موديل 1958، وها هي فرصة ذهبية لأن يمتلك سيارة حديثة من أفخر الأنواع.. غير أن «خالد» طلب منه أن يرفض، واحتج «ماهر»، لكن «خالد» كعادته أصر على الرفض.. وبعد أن رفض «ماهر» بحجة أن الثراء المفاجئ قد يكشفه ويلفت إليه الأنظار، عرف أن «خالد» حماه من مأزق، فلقد كان الأمر كله فخًا نصبته له مخابرات إسرائيل لتمتحن ولاءه.. فإن الجاسوس

الذي لا يأبه بمثل هذه الأشياء، لا بد أن يكون هناك ما يحميه.. ومَنْ يحمي جاسوسًا سوى جهاز آخر للمخابرات؟..

سألني «ماهر عبد الحميد» ذات لقاء: «هل تعرف أن المخابرات المصرية هي أقدم جهاز للمخابرات في العالم؟ وكان جوابي الصمت.

واستمر «ماهر» في فذلكة تاريخية يوضح الأمر:

في جميع مدارس المخابرات في العالم، أيًا كانت هذه المدارس، أول ما يتعلمه الطالب هو: أن أقدم وثيقة مخابرات عرفت حتى الآن، هي الوثيقة التي قدمتها «إدارة المخابرات المصرية» للفرعون «مفتاح» – 14 قرنًا قبل الميلاد – تحدد له طرق الاقتراب من مدينة «يها» التي كانت تقع جنوب (مجدو) بستة عشر كيلومترًا وتنصح المخابرات المصرية فرعون بأن يسلك الطريق الأوسط.

وإذا كانت المخابرات عملية خبرة في الأساس تتضاعف مع الممارسة يومًا بعد يوم.. فإن خبرتنا – نحن المصريين – تفوق أية خبرة أخرى فوق ظهر الكرة الأرضية.

بمعنى: أننا يوم أن خدعنا العالم أجمع يوم 6 أكتوبر، وأن أي إنسان على وجه الأرض لم يكن يعرف ساعة الصفر بأي معنى من المعاني سوى هؤلاء الذين كان عليهم أن يعطوا إشارة البدء.. مرده إلى أننا أقدم ناس في هذه اللعبة.

▩ ▩ ▩

ذات يوم طلبت المخابرات الإسرائيلية من «ماهر» أن يسافر إلى إسرائيل.

كان «ماهر» قد سافر بالفعل قبل ذلك. هذا ما يؤكده لي حديثه المتناثر عن إسرائيل وعن تكوين جهاز مخابراتها، وعن التركيب الهش لمجتمعها.. وقد يكون هذا كله نتيجة لدراسته التي انكب عليها في شغف ونشاط عظيم فيما بعد بالإدارة «44» التي تخصصت لفترة في الحرب النفسية ضد العدو... ولكن هل يتأتى أن تأتي الصورة التي كتبها عن تل أبيب والقدس في كتابه «المفاجأة» تلك الصورة التي تنقل إلى القارئ ألوان الشوارع والبيوت والمتاجر والمحال، بل ورائحة المصانع والبارات هل تتأتى مثل هذه الصور لكاتب دون أن يراها ويعايشها خاصة إذا ما كانت لدولة معادية يبدو من المستحيل للمواطن العادي أن يزورها؟.. وعلى كلٍّ فإن طلب المخابرات الإسرائيلية في ذلك الوقت، كان يحمل نذيرًا غامضًا.

كانت الفخاخ التي تنصبها المخابرات المصرية عن طريق المعلومات التي كان «ماهر» يمدهم بها قد تتالت، وكان أبسط ما يمكن أن يقال: أن «ماهرًا» في رحلته هذه إلى إسرائيل سوف يوضع تحت اختبارات رهيبة ومضنية لمعرفة ما إذا كان على علاقة بالمخابرات المصرية أم لا.

وسأله «خالد» كعادته: «انت رأيك إيه؟».. ورد «ماهر»: أسافر!.. فابتسم «خالد».

ابتسم تلك الابتسامة التي كان «ماهر» قد بدأ يعرف عن يقين، أنها تحمل وراءها أنباء غير عادية.. وعندما ناقش «خالد» معه كل الاحتمالات الممكنة وراء طلبه للسفر، كان «ماهر» يبدي حماسًا أزكته في نفسه تلك الانتصارات المتتالية في السفر - وفي دخول تلك الاختبارات - مهما كانت قسوتها.. ولقد كان واثقًا من الانتصار.

ومضى «ماهر» دون أن يأخذ ردًّا من «خالد».

وفي اليوم التالي كان عليه أن ينتظر مكالمة تليفونية في الثانية عشرة ظهرًا في مكان ما بالقاهرة.

أغلب الظن أن هذا المكان مقهى بلدي في وسط البلد - كان «ماهر» يلتقي فيه بعض زملاء الدراسة، وكانوا يلعبون الطاولة وأغلب الظن أيضًا أن «ماهرًا» كان زبونًا في هذا المقهى من أيام الثانوي.

زعق الجرسون باسم «ماهر» فنهض ليضع السماعة على أذنه، وجاء صوت «خالد»:

«العربية راحت للميكانيكي».

وساد الصمت..

يقيني أن أبسط ما شعر به «ماهر» هو خيبة الأمل.. كان معنى تلك الجملة التي يطلقون على مثلها في عالم المخابرات اسم «الكود» أن العملية انتهت.

وعاد صوت «خالد» في التليفون: «سامعني»؟..

«أيوه»..

قالها «ماهر» في أسى، وظل ممسكًا بالسماعة كأنه ينتظر شيئًا، غير أنه لم يسمع سوى تحية مقتضبة رد بمثلها، ثم وضع السماعة على الطرف الآخر.

■ ■ ■

في الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، ألقت النيابة القبض على «الغريب».

وفي منزله ضبطت كل الأدلة المادية، الكاميرا وجهاز الإرسال وأدوات الكتابة بالحبر السري.. وكانت المفاجأة التي أذهلت الغريب، أنهم كانوا لا يفتشون البيت بل يتجهون مباشرة إلى حيث ضبطت الأجهزة، ويخرجونها في صمت وأدب.

«جازية» المصرية





«جازية» المصرية

عزيزتي..

أكتب إليكِ هذا الخطاب لأرد على سؤال لك عن معنى «البطولة».. ولست أدري في الحقيقة كان يمكن أن أعرف البطولة، فمسألة التعريف هذه مسألة تحتمل الكثير من المناقشات، غير أني - مثلًا - لا أعتبر «محمد علي كلاي» بطلًا كما يطلق عليه الناس، وليس هذا من نوع «خالف تعرف» كما قد يتبادر إلى لسانك السليط الذي تعوَّدت دائمًا أن تهاجميني به في مناقشتنا الصاخبة.. ولكنه نوع من الاقتناع بأن هذا الشاب القوي العضلات الذي خلق هكذا مفتول الجسد والقوام، والذي «تدرب» على لكم الذين ينازلونه والانتصار عليهم، لا يمكن أن يكون بطلًا لأنه أدى عمله على الوجه الأكمل.. أما البطولة بمعناها الحقيقي، فلقد عثرت عليها وأنا أجلس إلى صديقي ضابط المخابرات المصري، عثرت عليها في قصة «جازية» المصرية.

ولست في حاجة طبعًا لأن أذكرك دائمًا بأن الأسماء التي نوردها في مثل هذه القصص أسماء وهمية، فالأبطال الحقيقيون لا يعنيهم أن تسلط عليهم الأضواء، ولا أن يصفق لهم الناس.

■ ■ ■

ولقد وقعت قصة «جازية» في سنة من تلك السنوات التي أعقبت نكسة يونيو 1967 في تلك الأيام التي اختلط فيها كل شيء بكل شيء، تلك الأيام التي فقدنا فيها الاتزان كما فقدنا فيها الكثير من مقومات حياتنا.. تلك الأيام التي انفتح فيها الباب لشراء السيارات من الخارج والعودة بها، فراجت تجارة السيارات، كما راج السفر إلى الخارج في جحافل لم تكن تدري إلى أين هي ذاهبة، وفي وسط القاهرة وفي أحد شوارعها، كانت «جازية» تسعى بحثًا عن عمل.

وككل فتاة تبدأ حياتها.. تمنت «جازية» أن تعمل صحفية.

وبالفعل استطاعت أن تخطو تلك الخطوة الأولى التي خطوناها جميعًا في ذلك العالم المفعم برائحة الحبر والورق، والتحقت بإحدى دور الصحف كمحررة بالقطعة.. والمحرر بالقطعة هذا - إن لم تعلمي - هو صحفي غير معتمد، يعتمد أساسًا على نشاطه في كتابة الموضوعات، وفي جمع الأخبار، على أن يتقاضى على ما ينشر له منها أجرًا زهيدًا.

ولست أدري ما الذي حال بين «جازية» وبين التعيين، ذلك أنها كانت من ذلك النوع من الفتيات الذي لا يأبه بشيء، ولا يقيم وزنًا إلا لما في رأسه من أهداف.. لم تشعر «جازية» في الدار الصحفية بأن عليها أن

تمشي جنب الحيط.. بل راحت تعمل في المجلات حينًا، وفي الإعلانات حينًا آخر، كانت تنطلق كصاروخ لا يعرف هدفه، وقد كنا كلنا كذلك في مثل هذه الفترة التي كانت تمر بها، وكان هذا بالذات، باعثًا على إثارة الأقاويل حولها ووجدت شخصيتها عند أصحاب الألسنة السليطة، وعند أحزاب النميمة المعتمدة الكثير مما يمكن أن ينسج حولها.

هكذا وجدت «جازية المصرية» نفسها، تتخبط بحثًا عن لقمة عيش كريمة تجعل منها عضوًا صالحًا في المجتمع، لكنها - بكل أسف - ورغم كل المجهود الذي بذلته في كل اتجاه، لم تعين.. ظلت محررة بالقطعة تعتمد على قدميها في مسح شوارع القاهرة بحثًا عن خبر أو إعلان.

■ ■ ■

في أحيان كثيرة تكون بذرة البطولة كالقلب، كامنة في صدر الإنسان، تمده بالحياة دون أن يشعر بها، وكم كنت أتمنى أن ألتقي «جازية»، وحتى عندما عرض عليَّ صديقي ضابط المخابرات المصري أن ألتقيها.. رفضت بعد تفكير، فإن الأبطال الحقيقيين كالفنانين.. إننا نضع حول الفنان هالة من الضوء يصنعها في وجداننا فنه، ويظل الفنان تمثالًا من الجمال حتى نلتقيه.. فإذا التمثال يتحطم، وإذا الفنان إنسان له من النقائص أكثر مما للآخرين ربما.. ولقد خفت أن ألتقي «جازية» حتى لا يتحطم التمثال، فإن ما صنعته تلك الفتاة المصرية، ببساطة ودون طبول تدق، أكبر من أن يصبح خلقًا ثابتًا أو ضوءًا يشع من حول رأسها.

كانت «جازية» قد استطاعت خلال الشهور الأخيرة من ذلك العام أن تحقق من الإعلانات التي جلبتها إلى الدار، بضع مئات من الجنيهات، ومع جحافل الزاحفين إلى أوروبا، ومع طابور السيارات المستعملة الذي ملأ أرصفة موانئ إيطاليا واليونان ولبنان وفرنسا وألمانيا، قررت «جازية» أن تبحث لنفسها عن مورد رزق، عن سيارة..

والله وحده يعلم ما الذي كان يدور في رأسها، هل كانت تنوي شراء السيارة لكي تعفيها من اللف والدوران في شوارع القاهرة جريًا وراء خبر أو إعلان، أم كانت تنوي أن تصنع من السيارة «تاكسي» تربح منه كل شهر بضع عشرات من الجنيهات تعينها على الحياة.

على كلٍّ فإن الناس في تلك الأيام كانوا يشترون السيارة أولًا.. ولقد سمعت «جازية» عن «صادق» وقال لها الناس إنه ساعد الكثيرين في شراء سيارات، وكانت سعيدة الحظ أن عثرت على قريب للسيد «صادق» قادها إليه.

كان صادق هذا، مثله مثل الكثيرين ممن ينبتون في المجتمع، في كل مجتمع وأي مجتمع «جوكر» كان رجلًا «بتاع كله».

كان موظفًا وتاجرًا وسمسارًا.. و..

كان «صادق» في الشهور الأخيرة، قد عرف طريقه إلى الخارج، وفي الخارج عرف كيف يلتقط لقمة العيش، ولكن من أين.. هذا ما لم يكن يعلمه أحد، وهذا ما لم تكن تعلمه «جازية».

ودون إثارة.. أو محاولة للإثارة، كان «صادق» في حقيقته «جاسوسًا».

لا تفزعي يا صديقتي فإن الجواسيس لا تنبت في أفواههم أنياب، ولكي نكون قومًا متحضرين علينا أن نعيد النظر إلى الصور التي نصنعها لبعض الناس في أذهاننا.. وإذا كان العصر الذي نحن مقبلون عليه، هو عصر الكمبيوتر، فإن التعقيد سيصبح - دون شك - هو السمة الواضحة في حياة البشر، وكان الله في عون الأجيال القادمة.

لا تفزعي إذن، فإن الجاسوس عادة إنسان ناعم الملمس، رقيق الحاشية، تحتم عليه وظيفته أن يعرف كيف يعامل الناس، كيف يسيطر عليهم، وكيف يكتسب ثقتهم.. وهكذا التقت «جازية» «صادقًا»، قدمت له نفسها: «إنها صحفية، وهي تريد أن تشتري سيارة».

وإذا كانت مهنة الجاسوس، هي مهنة البحث عن الأخبار، فهل هناك صيد أكبر من صحفية مهنتها هي أيضًا البحث عن أخبار.

هنا تبدأ اللعبة.. وهنا خطت «جازية» خطوتها الأولى نحو المجهول.

■ ■ ■

بعد شهر بالضبط من تلك الليلة التي التقت فيها «جازية» «صادقًا» في القاهرة..

كانت تهبط من الطائرة في مطار روما.. وكان صادق بجوارها يحنو عليها ويساعدها، كان خلال المرات التي التقى فيها جازية في القاهرة،

قد ألقى بضعة أسئلة، أسئلة شديدة البراءة في مظهرها.. أسئلة تدور حول عملها ورؤسائها، حول علاقاتها والمسئولين الذين تعرفهم، ونحن شعب يحب الدردشة.. وفينا - كما في كل بلاد العالم - من يحب أن يظهر كعالم ببواطن الأمور.

وإذا كانت تلك النكسة قد أطلقت الألسنة من عقالها في تلك الأيام، فلقد كان الحديث في الطائرة بين صادق وجازية يمتد إلى كل اتجاه، عن النكسة، عن الجيش، عن إسرائيل، عن..

لا ...

لنتوقف قليلًا عند «إسرائيل».. ولنلق نظرة إلى الخلف، لنرى الصورة على حقيقتها.

لنتوقف قليلًا لكي نرى كيف كنا «نرى» إسرائيل في تلك الأيام..

لنتوقف قليلًا لنتذكر كيف كنا ننظر إلى أنفسنا.

فئة قليلة جدًّا في مصر، كانت تعلم طبيعة إسرائيل على حقيقتها، كانت تعرف حقيقة تكوين المجتمع الإسرائيلي، والجيش الإسرائيلي، والفرد الإسرائيلي... كانت تعلم حقيقة انتصار إسرائيل الذي اهتز له العالم، وطنطنت له الدنيا، وهلل له الشامتون والحاقدون والموتورون.. أو.. ولا داعي للاسترسال فلقد كان المصريون في تلك الأيام يشعرون بعجز لم يشعر به شعب عانى الهزيمة.

في الطائرة، كما كان الأمر في القاهرة لم يكن الحديث بين «صادق» وبين «جازية» قد أخذ مسارًا واضحًا، كل ما في الأمر، أن الطُّعم كان

يُلقى أثناء الحديث، وبذكاء المدرب ليصيب نقطة الضعف المتقيحة في صدور المصريين في تلك الأيام، ليصيب في نفس «جازية» موطن الهزيمة.

في روما.. أسلمت «جازية» قيادها بالكامل إلى «صادق».

كان وهو في القاهرة.. قد تعهد بأن يتعهد بكل شيء.

وكانت وهي في القاهرة.. قد أعطته كل ما لها، كل ما تملك.

ووجدت «جازية» نفسها في أحد فنادق «روما» الفاخرة.. قادها «صادق» عبر هول الفندق في مصعد يعمل به فتى في جمال الملائكة، صعد بها إلى طابق يصبح وقع خطوات أرضه همسًا، وقف بها إلى غرفة تحول أحلام من كان مثلها أو مثلي ومثلك إلى حلم سينمائي ملون.. ثم تركها ومضى على موعد.

بالله!

كيف يمكن أن تشعر فتاة مثل «جازية» في ليلة كتلك الليلة الأولى التي قضتها في روما.

تركها «صادق» ومضى لعمله في روما.. تركها على موعد ووجدت نفسها ترفل في غرفة حريرية في فندق عالمي.. اغتسلت وبدَّلت ملابسها وغادرت غرفتها وهبطت إلى الفندق وترددت ثم حسمت أمرها وانطلقت إلى شوارع روما البهيجة.

لعلك الآن يا صديقتي تتعجلين الأمر، لكني فقط أريد أن أصل بك إلي هذا الإحساس الذي يصيب الإنسان - خاصة من كان من دولة تفعل المستحيل لكي تنمو - وهو يرى البذخ من حوله يبهر البصر، وإذا كان لكل شعب من شعوب الأرض مميزاته فإن ما يتميز به الشعب الإيطالي هو أنه يتقن فن الحياة.. فن تنسيقها وممارستها معًا والذي لا شك فيه أن «جازية» قد انبهرت بما رأت، وأن رأسها قد ازداد دواره وعيناها تضيعان بين الأضواء التي تخطف البصر، ومظاهر البذخ البادية، ثم.. ثم تلك السيارات التي كانت تنزلق في الشوارع بلا ضوضاء، وتلك الأجساد الفارهة المكسوة بآخر صيحات الموضة.. و.. وعادت «جازية» إلى الفندق.. وقضت ليلة هدهدتها فيها الأحلام.

سؤال واحد كان يلح عليها: هذه دولة هزمت، فمتى تقف مصر - مثلها - على قدميها، ومتى، ومتى تصبح الحياة فيها مثل الحياة هنا؟

■ ■ ■

في اليوم التالي جاءها «صادق» كملاك رحمة يهبط من السماء ليقودها إلى الجنة.. جاء ليقودها إلى حيث اشترت سيارة فارهة، سيارة.. سيارة نظيفة، لامعة، جميلة ذات جسد براق ومقاعد وثيرة، سيارة قادتها «جازية» في شوارع روما، فلقد كانت تعرف كيف تقود سيارة، كواحدة من آلهة الإغريق القدامى.. وأمام الفندق توقفت وهبطت، وهرول الحارس ليفتح لها الباب، ونفذت إلى الهول خلفها «صادق».. و.. وهل تستطيعين أن تتخيلي هذا المشهد السينمائي الذي يدير الرأس؟

في بهو الفندق جلست «جازية» بجوار «صادق» وراحا يتجاذبان أطراف الحديث.. من وسط سحابات الحلم الجميل كان ثمة سؤال يتأرجح في رأس «جازية» ويكاد يبدد الحلم الجميل.. لقد ابتلع ثمن السيارة كل ما جاءت به من القاهرة، كل ما أعطته لصادق، فمن أين تدفع أجر الفندق، من أين تأكل، من أين تأتي بثمن تذكرة العودة، من أين تدفع ثمن شحن السيارة؟. بل هل آن للحلم الجميل أن ينتهي، وبمثل هذه السرعة، هل تعود إلى القاهرة قبل أن تستنشق هواء روما المفعم بالبذخ؟!

غير أن حديث «صادق» كان يأخذها بعيدًا بعيدًا، كان حديثًا مطمئنًا، كان دردشة حول مصر، حول المال، حول الأعمال، حول الفن، حتى إذا حان موعد الطعام اصطحبها في سيارتها إلى أحد المطاعم الفاخرة، مرة أخرى تنزلق كالحلم في شوارع روما حيث المرور منتظم، حيث كل شيء يجري بدقة، أمام المطعم توقفت، هرول الحارس ليفتح لها الباب، دلفت إلى المطعم لتحتويها الموسيقى التي تنبعث من الهواء، ومن كل ذرة فضاء، من داخلها، من حديث صادق السلس الرقيق، من صوته الواثق الهادئ.. وإذا كان صادق يعرف كل شيء، فلا بد أنه يعرف أنها - الآن - مفلسة ولا بد أنه سوف يتدبر الأمر، ولسوف ترد له الجميل في القاهرة ممتنة.

ومن كان مثل «صادق» فلا بد أن له أعمالًا في روما.. عاد بها إلى الفندق واستأذن منها في تلك الليلة، على موعد في اليوم التالي.

وتركها صادق واختفى.. لم يختف ليلة، أو يومًا أو يومين، بل اختفى أسبوعًا كاملًا..

■ ■ ■

عزيزتي...

هل تعرفين كيف يجندون جاسوسًا؟

إن المسألة بعد أن عرفتها ودرستها طوال ما يقرب من عام، بسيطة كل البساطة.. ليست معقدة أو مركبة.. إنهم إذا ما وقع اختيارهم على إنسان ما، بحثوا عن نقطة الضعف فيه، ثم بدءوا يضغطون عليها، ثم إذا ما سيطروا عليها تمامًا، أصبحوا مسيطرين عليه فيستجيب، هذا كل ما في الأمر.. إن استجابة واحدة، لأمر واحد، تنقل الإنسان من عالم إلى عالم، إن خطوة واحدة، هي بداية طريق طويل نحو الخيانة، نحو الجحيم.

ولقد تركوا «جازية» أسبوعًا كادت فيه تفقد عقلها.. تركوها وسط النعيم بلا مال.. اختفى صادق تمامًا، وأصبحت «جازية» عاجزة عجزًا كاملًا عن التفكير.. كانت تأكل في الفندق، كانت تخرج أحيانًا بالسيارة لتهيم بلا قصد، ثم تركت السيارة بعد أن كاد البنزين يفرغ، وراحت تركب قدميها من جديد، تجوب الشوارع بحثًا عن مخرج، حتى اليوم الأول فاعتراها القلق، أين صادق؟.. وفي اليوم التالي سألت عاملة التليفون أكثر من عشر مرات إن كان أحد قد سأل عنها.. ولا جواب، وبدأ موظف الاستعلامات يرمقها بنظرة غريبة، ثم كف الحارس عن

الهرولة نحوها وفتح الباب، ثم أصبح الخدم يتلكئون في الإجابة على الجرس.. إن النعيم في حاجة إلى المال، وكل خطوة فيه تكلف بقشيشًا وثمنًا، وهي أصبحت لا تملك ثمن شيء، كانت كعارية تسير وسط الغربة بلا سند.. تحولت الأضواء الملونة إلى ألسنة لهب تكوي عقلها، من أين تدفع ثمن الفندق، من أين تضع بنزينًا في السيارة، بل.. كيف تترك كل شيء وتعود إلى القاهرة.. لم تكن «جازية» تعلم أن كل خطوة تخطوها كانت مراقبة ومحسوبة، لم تكن تعلم أن هناك عيونًا تتبع كل خطوة من خطواتها، وأن هناك آذانًا تسمع كل كلمة وكل نبرة في صوتها.. حتى إذا بلغ بها اليأس أقصاه، دق جرس التليفون ذات يوم في غرفتها، وعبر الأسلاك جاءها صوت صادق..

■ ■ ■

أنت لا تعرفين.. كما لا يعرف الكثيرون، أن لعبة المخابرات في العالم كله بعيدة كل البعد عن العنف.. إن ما نشاهده في أفلام جيمس بوند ليس حقيقة، بل خيالًا.. إن المخابرات في العالم أجمع.. لعبة اسمها «الذكاء».

ولقد يسمح، في ذات يوم، هؤلاء الرجال القابعون خلف أسوار الصمت في مبناهم هذا في حدائق القبة.. أن أحكي لك قصة ذلك الضابط المصري الذي كان يلعب الشطرنج في القاهرة مع ضابط مخابرات إسرائيلي في تل أبيب، ودون أن يرى أحدهما الآخر، أو يحدثه، أو يلتقيه، أو يعرف أي منهما القطع التي يحركها الآخر.. قد يسمحون

لي أن أقص هذه القصة التي انتصر فيها ضابط المخابرات المصري، فانتحر خصمه، أمام رقعة الشطرنج.

وقد كانت «جازية» في تلك الليلة التي حدثها فيها صادق بالتليفون، قد تحولت - علميًا وعمليًا - إلى قطعة من العجين الطيع، كانت قد تحوَّلت إلى قطعة لدنة من الصلصال يستطيع المثال الماهر أن يخلق منها ما يشاء.

حدثها صادق معتذرًا.. وصاحت هي فيه:

«أستاذ صادق.. أنا.. أنا».

وتوقفت.. أنا ماذا؟.. ما الذي يمكن أن تقوله وهو يعرف كل شيء... وعبر الأسلاك جاءها الصوت هادئًا واثقًا مطمئنًا.

«آسف قوي يا «جازية»، غصب عني، أنا بكره الصبح حاكون عندك».

بكره الصبح.. وماذا عن الليلة، وماذا عن الآن؟ ولأنها كانت بلا حول ولا طول، فلقد شكرته متوسلة، ووضعت السماعة، ثم انتبهت وكادت تصرخ فزعًا.. لقد أصبحت وحيدة من جديد.. وقفت وسط الغرفة مبعثرة الخاطر والفكر، نظرت إلى التليفون الأنيق وقد عاد يغرق في الصمت من جديد، اختطفت حقيبة يدها وهرولت إلى الطريق، تحولت السيارة إلى قبر لامع، وشوارع روما إلى جحيم لا يطاق.. كيف يمكن أن تمضي الساعات، ولقد مضت، مضت بطيئة ثقيلة لكنها مضت، مضت ليطلع النهار وليأتي الصباح، ولكن في أي ساعة من

الصباح سوف يأتي صادق، وإذا كان الصباح ينتهي رسميًا في الثانية عشرة فلقد أصبحت الساعة الواحدة ولم يأتِ صادق، ومضى الظهر والعصر وغربت الشمس وانكفأت «جازية» فوق الفراش وانخرطت في البكاء.

جاءها الطرق الخفيف على الباب كحلم، كانت هي بين اليقظة والنوم، كابوس هذا الذي كان يراودها أم حلم، صرخات تلك أم ضحكات، وعاد الطرق الخافت من جديد.. فاستبانت الأمر.. نهضت مضعضعة الحواس وانتبهت أكثر.. وعاد الطرق فهمست:

- مين؟..

- أنا صادق..

قفزت كالمجنونة لتفتح الباب.. وكان صادق يقف أمامها باسمًا:

هل تشعرين بما كانت تشعر به؟.. هل تدركين كيف كانت «جازية» في ذلك الوقت؟

أشك كثيرًا فمهما بلغ بنا الإحساس، فلا يمكن لأي منَّا أن يشعر بالنار كالمكتوي بها فعلًا.. وإذا كانت «جازية» قد أصبحت الآن «جاهزة» تمامًا.. فإن المثال الجيد، يعرف كيف يغسل طينته وكيف يجعلها أكثر طواعية.. وهكذا وجدت «جازية» نفسها تجلس في مطعم فاخر من مطاعم روما، الذي يدفعون فيه في وجبة الطعام ما يقبضه أيٌّ منَّا في شهر كامل، حيث الطعام له رائحة المسك، حيث الناس يأكلون بلا صوت، ويمضغون دون أن يحركوا شفاههم.. ولم تستطع «جازية»

أن تأكل، كل ما استطاعته أن تتشبث بصادق، ترفض أن تغلق عينيها حتى لا يغيب مرة أخرى.. غير أن الدقائق كانت تمضي، ليشكل المثال تمثاله على مهل وفي هدوء.. كانت الطمأنينة تعود إلى نفسها.

كان صادق يتحدث عن المال، كيف جاء إلى إيطاليا، كيف وجد عملًا في شركتين بدلًا من شركة واحدة.. كيف.. كيف؟

غير أنه لم يقل لها الحقيقة بطبيعة الحال.. كانت «جازية» تعلم أنه زوج لإحدى المعارف في الدقي.. ولم تكن تعلم أن لصادق زوجة أخرى في الإسكندرية، لم تكن تعرف أن تجارته أفلست هناك فنزح إلى إيطاليا ليعمل في تهريب البضائع إلى مصر، لم تكن «جازية» تعلم كيف مر «صادق» بنفس التجربة التي مرت بها، لم تكن تعرف أنه كان ضابطًا في المخابرات الإسرائيلية!!

بعد هذا كان لا بد أن تسير الأمور على ما يرام.. وإذا كان «صادق» قد اختار ركنًا في المطعم قريبًا من جهاز التكييف، فلقد أدهشه أن نهض الرجل الجالس على المائدة المجاورة ليغلق الجهاز، ونهض «صادق» ففتح الجهاز، ولم تنطق «جازية» فلم تكن تعرف الإيطالية، فلقد دار الحديث بين الرجل وبين «صادق» ترجمه لها صادق، وكان مناقشة حول جهاز التكييف، مناقشة انتهت بتعارف، ذلك أن الناس هنا على طبيعتهم، مش معقدين زينا.. هكذا قال لها صادق ورجل الأعمال ينتقل إلى مائدتهما.. ليدور الحديث بين الجميع بالإنجليزية..

وكانت هذه هي البداية..

فلقد قدم رجل الأعمال لها نفسه، وما إن عرف أن «جازية» صحفية مصرية، حتى تهلل وجهه، إنه كرجل أعمال يريد أن يفتح لشركته فرعًا في مصر.. وامتد الحديث حول مصر، حول الحرب، حول الحالة الاقتصادية، حول.. حول.. حول.. ولا شيء في الدنيا يعادل الحديث عن مصر في لذته، وأنت بعيدة عن مصر.. نهض صادق إلى التليفون أثناء الحديث مرات وعاد، وامتد الحديث بين رجل الأعمال وبين «جازية»، وإذا به يعرض عليها أن تكون مندوبة الشركة في مصر.

هكذا وجدت «جازية» نفسها أمام طاقة فتحت لها في السماء.

وإذا كان الحديث حول المال والأعمال يتم في جلسة فلقد دعاهما رجل الأعمال الإيطالي إلى الغداء في اليوم التالي.

وفي اليوم التالي كانت «جازية» تدلف إلى المطعم الفاخر وحدها، كان «صادق» قد أمدها ببعض المال.. وكان قد وعد بالحضور، لكنها لم تجده هناك.. بل وجدت رجل الأعمال الرقيق الحازم.. أن رأس المال لا يتحرك إلا إذا اطمأن إلى الأرض التي سوف يخطو عليها.. إن مشروعه في مصر قد يتكلف عشرة ملايين دولار، ولسوف تكون لجازية بطبيعة الحال - نسبة مئوية - كما سيكون لها مرتب ثابت.. كان الأمر يجري بين يديها بالأرقام والأوراق.. وليست المشاريع كلامًا يطلق في الهواء، بل خرائط ومواصفات كانت تفرد أمام عينيها واقعًا تلمسه بيدها.. استغرقها الحديث وسال لعابها.. أن تكون في حاجة بعد الآن للجري وراء خبر أو إعلان.. شيء واحد فقط كان يقلقها.. أن صادق لم يأت.. وإذا كان

رجل الأعمال لا يهتم بحضوره، فسبب ذلك أن العرض قدم إليها لا إليه، وعندما استدعاها الجرسون إلى التليفون، كان صادق على الطرف الآخر يعتذر، أن لديه أعمالًا لا بد أن ينتهي منها، ولسوف يلتقي بها في المساء.

وفي المساء كانت تقص على «صادق» ما حدث، وكان صادق يبدو مندهشًا، سعيدًا، وكان يشجعها على القبول.. فهكذا بدأ حياته في إيطاليا. وكانت المفاجأة أن صادق أخبرها بأن السيارة سوف تشحن في الغد إلى مصر، وأن حساب الفندق قد دفع.. ولقد حاولت «جازية» أن تسأله عن الحساب، غير أنه رفض بكرم حاتمي، وأجّل الأمر برمته إلى حين العودة إلى القاهرة..

انفرجت الأزمة، وعادت «جازية» تتنسم عبير الحياة في روما.. وتعددت لقاءاتها مع رجل الأعمال. ووضع المشروع أمامها بكل دقائقه.. غير أن شيئًا واحدًا كان ينقص الأمر كله حتى يبدأ التنفيذ.. هو: ما هي الحالة الاقتصادية في مصر؟.. وهل تسمح هذه الحالة ببداية مشروع كهذا؟.. وماذا عن الحرب؟.. وهل يستعد المصريون لها أم أن الأمور قد استقرت؟..

كانت البداية طبيعية.. ولكن نهايته.. جعلت «الفار يلعب في عب «جازية»..

قال لي صديقي ضابط المخابرات المصري:

«نحن لسنا آلهة نعلم الغيب، إن عملنا هو حماية مصر، عملنا هو اكتشاف الجواسيس وبقدر ما نبذل من جهد، بقدر ما ننجح!..»

هكذا كان يبسط الأمر وهو يحكي لي حكاية «جازية».. «جازية» المصرية..

وإذا كان العلم هو الأساس الصحيح لكل الأشياء في الدنيا، فإن العلم هو الذي يرسم الطريق أمام هؤلاء الرجال القابعين خلف أسوار الصمت في كوبري القبة.

ولقد شعرت «جازية» بشيء غير طبيعي.. كان المطلوب منها في المرحلة الأولى للمشروع، أن يظل الأمر سرًّا لا يعرفه أحد.. ذلك أن رأس المال يجب أن يتحرك وسط ضمانات أكيدة.. كما كان المطلوب منها أن تستقصي عن بعض الأخبار الاقتصادية.. وهذا سهل عليها، فإنها إن كانت صحفية، فإن مهنتها هي البحث عن الأخبار.. أخبار الاقتصاد المصري.. وأخبار الجيش المصري.. حتى يتسنى للرجل أن يعرف في أي أرض سوف يضع ماله..

وطوال الفترة الباقية في روما، اختفى «صادق»! وفي علم المخابرات، يسعى من يعمل ذلك العمل الذي يقوم به «صادق» «الفراز».. ويصبح على الفراز إذا ما أصبحت الفريسة جاهزة، أن يختفي تمامًا من الحلبة، وأن يبتعد.. ولقد ابتعد صادق، ولكنه لم يخلف وراءه ذلك القلق المدمر الذي ترك فيه «جازية» في المرة الأولى، ذلك أنها الآن، كانت في حماية صاحب العمل، الذي اتفق معها على الأجر، وودعها على لقاء في موعد سوف يحدده لها في القاهرة.

■ ■ ■

عندما هبطت «جازية» في مطار القاهرة الدولي، كانت تحمل في حقيبتها بوليصة شحن السيارة، وبضعة عشرات من الدولارات.. وكانت هي تخطو خطوتها الأولى خارج المطار أمام طريقين لا ثالث لهما.. وكان عليها أن تختار.

■ ■ ■

هنا يا عزيزتي.. نصل إلى لب الموضوع..

هنا نصل إلى معنى «البطولة» كما أفهمها أنا.. لم يكن المطلوب من «جازية» في تلك المرحلة شيئًا غير عادي.. كان المعروض عليها عملًا مغريًا «بمرتب مغر» وأحلامًا لا يبددها أي مجنون.. أو «بطل».

وإذا كان المشروع سوف يتكلف عشرة ملايين دولار، فإن أرباحه سوف تصل إلى عشرات الملايين دون شك، وإذا كانت الأرباح ستصل إلى عشرات الملايين، فأي نسبة هذه التي كانت ستحصل عليها «جازية»؟..

ولكن...

كانت ثمة رائحة تفوح من الأمر كله..

لم يكن ما يدور في ذهن «جازية»، شيئًا محددًا، لم يكن سوى مجرد هواجس تطوف بالخاطر، إحساس غير طبيعي بأن ثمة شيئًا غير عادي في الأمر كله.. فهل تبدد الحلم أم تعود تسعى في شوارع القاهرة بحثًا عن عمل؟..

غير أن الأمر لم يأخذ من «جازية» الكثير...

نظرت ذات صباح إلى سيارتها الجديدة، وكانت قد أصبحت الآن ملكًا خالصًا لها، ثم فتحت الباب، وجلست خلف عجلة القيادة، وأدارت الموتور، وانطلقت.

كانت تعرف ببساطة وجهتها..

كانت تعرف أين يقع ذلك المبنى الغارق في الصمت.. وهناك طلبت أن تقابل مسئولًا...

■ ■ ■

عاد صديقي ضابط المخابرات المصري يقول:

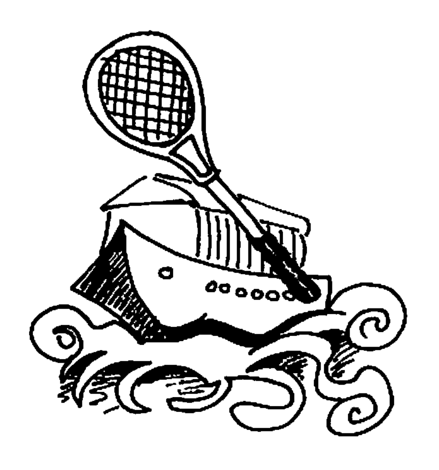
«نحن لسنا آلهة نعلم الغيب.. إن عملنا هو حماية مصر، عملنا هو اكتشاف الجواسيس.. وبقدر ما نبذل من جهد، بقدر ما ننجح!»

وكانوا قد بذلوا جهدًا خلف «صادق» منذ ما يقرب من عام.. ووقع الخبر على «جازية» وقوع الصاعقة.. أن «صادق» ليس خائنًا فحسب.. إنه ضابط في المخابرات الإسرائيلية.. لقد اختار أحد الطريقين يوم أغراه المال عن الوطن..

وخرجت «جازية» من المبنى لتشارك في القبض على صادق، الذي ضبط متلبسًا كالعادة وحوكم وأعدم.. وعادت «جازية» تطوف شوارع القاهرة بحثًا عن عمل..

ولقد عثرت «جازية» على عمل، أصبحت صحفية بمرتب.. لكنها باعت السيارة.

القبطان





القبطان

لم يشعر أحد من المتفرجين الذين ازدحموا في شرفة ملاعب «الإسكواش راكيت» بهذا الشاب الأصلع الذي راح ينزلق بين الأجساد كي يصل إلى المقدمة ويتخذ لنفسه مكانًا فوق الملعب مباشرة.. لم تكن أهمية المباراة التي كانت دائرة أن أحد اللاعبين هو «سعيد» مدرب الإسكواش في النادي فقط، بل لأن اللاعب الآخر كان «عمر حمدي»، ذلك الشاب الذي تمتزج الرجولة بشبابه امتزاجًا يضفي عليه نوعًا من السحر كان حديث الفتيات في النادي، والذي كان - إذا ما ظهر فجأة بعد اختفاءة من تلك الاختفاءات التي اشتهر بها - يثير في النادي جوًّا من المرح والتحدي كان يقلب مباريات الإسكواش رأسًا على عقب.

وعندما وصل ذلك الشاب الغامض الذي لم يلفت نظر أحد، كان واضحًا أن «سعيد» متفوق على خصمه، ولكن... كان الأكثر وضوحًا، أن عمر كان يستميت دفعًا للهزيمة.. كان اللاعبان الآن يقفان عند نقطة تعادلًا فيها، ولقد دقت قلوب الكثيرين انفعالًا عندما أحرز «سعيد»

هذه النقطة في لحظة غامضة، لحظة لمحت فيها عينا عمر شيئًا في الشرفة، كانت لحظة سريعة خاطفة أحرز فيها سعيد النقطة، وانتهت المباراة!!

لم يكن هذا الشيء الذي حول نظرات عمر عن الكرة السوداء الصغيرة، سوى وردة بيضاء من نوع القرنفل الذي ينتشر في مصر في مثل تلك الأيام من الصيف.. وبعد خمس دقائق، وربما أقل بجزء من الدقيقة، كان عمر يدلف إلى الباستير - غرفة خلع الملابس في النادي - وهو يجفف عرقه ويتبادل النكات والضحكات مع الذين راحوا يلومونه.. وعندما توقف عمر أمام دولاب ملابسه، كان يحمل في يده مضرب الإسكواش، وفوطة حمراء اللون، وكانت يده - وهي ترفع لتفتح الدولاب - قد التقطت ورقة صغيرة مطوية في حجم ورقة البريد.. ولم يلحظ أحد بطبيعة الحال، مَنْ الذي أعطاه تلك الورقة، ولم يلحظ أحد أنها ظلت بين أصابعه حتى دلف إلى الحمام، ووقف تحت الدش، ولم يلحظ أحد أنه فردها وقرأ ما فيها من رموز. ثم.. ثم ذابت الرموز تحت مياه الدش، كما ذابت الورقة وتفتت مع المياه والصابون وكأنها لم تكن!!

■ ■ ■

كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً عندما كانت سيارة «عمر حمدي» الصغيرة تخترق شوارع ذلك الحي الأرستقراطي في القاهرة.. وكانت المسافة الباقية محسوبة في رأسه بدقة.. وقبل أن تدق الساعة العاشرة بدقيقتين فتحت بوابة أحد القصور الغارقة في الصمت والضوء الخافت، ونفذت سيارة «عمر» إلى حديقة القصر وسارت

في أحد الممرات حتى وصلت إلى خميلة كانت تخفي ما بداخلها، هبط «عمر» من السيارة، وسار تحت تكعيبة عنب مورقة، لكنه قبل أن يصل إلى نهايتها، انثنى فجأة إلى باب كان يختفي خلف أوراق الشجر، دلف من الباب فاحتواه بهو هائل.. بنظرة سريعة كان قد شمل البهو كله، وعندما خطا خطوته الأولى، كان واضحًا أنه يعرف طريقه جيدًا!

سار خطوات ثم نفذ إلى اليسار ليصعد درجات سلم دون أن يصدر عن قدميه - رغم سرعته في الصعود - أي صوت.. وعند قمة السلم كاد يصطدم به رجل كان يهرول وكأنه يطارد شيطانًا، تفادى عمر الاصطدام بالرجل المهرول ثم دلف إلى باب جانبي فطالعته في الداخل «سوزي».

توقف لثوان، واحتوته عيناها الزرقاوان، وابتسامتها الواسعة الواثقة، كان يعرف أنه سيراها، وكان كلما رآها، أحس بالحنين إلى تلك الأيام الدافئة على شاطئ «بور توفينو» بالريفييرا الإيطالية، وعندما مال عليها هامسًا بالتحية، جاء صوت الدكتور وكأنه يصدر عن الهواء:

- ادخل يا عمر!

نظر في ساعته وتمتم في ضيق:

- لسه فاضل عشرين ثانية!..

وابتسمت سوزي وهي تومئ له نحو الباب، وجاءها صوته قبل أن يغلق الباب خلفه مرة أخرى وهو يقول: مساء الخير يا أفندم!»

■ ■ ■

في تلك اللحظة بالذات، كان القبطان «انطونيو كاناليس» - قبطان أعالي البحار - يجلس في أحد ملاهي مارسيليا وإلى جواره كانت «ماري لويز».. كان واضحًا أن القبطان يشرب في تلك الليلة بصورة تزعج ماري إلى أقصى حد.. ثمة شيء غامض كان يحيط برجلها العجوز منذ ما يقرب من شهرين دون أن تدري - بالتحديد - ما هو.. كل ما تعرفه أن «أيزاك» جاءها ذات يوم وطلب منها أن تهتم بالقبطان، ولقد أطاعت الأمر كما تعودت أن تطيع منذ أن حدث ما حدث.. لم يكن أمامها مفر، إن «الإنتربول» - البوليس الجنائي الدولي - يسعى وراءها، ظلت طريدة لسنوات حتى استقرت أخيرًا في مارسيليا، ولقد طوت الماضي على جرح لم تجف دماؤه.. قائلة هي: «نعم!!...» ومهما كانت دوافع القتل فلقد كان السجن هو مصيرها لو باح أحد بسرها الدفين.. ولقد كان «أيزاك» يعرف هذا السر، وكان يحميها، ولم يكن يطلب منها في مقابل هذه الحماية شيئًا سوى خدمات بسيطة.. وفي البداية، كان أنطونيو واحدًا من الرجال، وفي النادي الليلي لم يكن هناك سوى رجال، رجال، رجال... هذه هي مهنتها اليوم.. لسنوات طويلة عاشت هذه المهنة وتعودت عليها فلا مجال للتفكير فيها الآن وادِّعاء الشرف أو الرغبة في حياة مستقرة، لا... ولكن كان ثمة شيء يقربها من قبطانها هذا العجوز القوي البنية، الحاد التقاطيع..

منذ أن التقت به شعره والرمادي يمس في قلبها وترًا غامضًا.

«أنطونيو.. ألا تكف عن الشراب؟!»

نظر إليها نظرة جعلتها تتساءل:

- ما الذي أراده أيزاك بأنطونيو يوم أن أوصاها به؟!

- سؤال طالما ألح عليها في المرات التي رأت فيها أنطونيو القوي العابث وكأنه يتبعثر.. لكنها لم تجرؤ على توجيه السؤال إلى أحد، ما لها هي وأعمال البحر وعصابات التهريب فيه، ثم... هل من الممكن أن تظن في أنطونيو بكل خبرته رعونة أو تورطًا فيما لا يجدي؟!

«أنطونيو.. دعنا نغادر هذا المكان!»

وأفرغ أنطونيو كأسه دفعة واحدة، وعندما التقت نظراته بنظراتها، أحست أن ثمة شيئًا يخبو في عينيه، تلك النظرة العارمة المشتعلة أين ذهبت؟.. وعندما كانا يغادران النادي الليلي، كان ثمة سؤال يلح عليها ترى.. هل وقعت في الحب أخيرًا؟!

▪ ▪ ▪

تعوَّد «عمر حمدي» - إذا ما أسندوا إليه إحدى العمليات أن يلجأ إلى الشطرنج.. في أحيان كثيرة كان يسخر من نفسه، لكنه كان دائمًا ما يضع الرقعة أمامه، ويجلس إليها طويلًا، ربما بالساعات، لا ينطق حرفًا، ولا يكف عن التدخين!

ولقد كانت عملية اليوم غريبة..

لقد ثبت أن إسرائيل كانت تحصل طوال الشهور الماضية على معلومات أكيدة عن ميناء الإسكندرية، ولم يكن غريبًا أن تجري إسرائيل

وراء الميناء بالتحديد، لقد حصلت مصر حديثًا على عدد من الغواصات، وكان المصريون قد عرفوا كيف يقودون هذا السلاح رغم أنهم كانوا يمارسون هذا لأول مرة... كما كانوا قد حصلوا على عدد من القطع البحرية الحديثة التسليح.. وإذا كان الإسرائيليون يعرفون سمة السلاح البحري المصري على حقيقتها، فهم لا ينسون ما فعله هذا السلاح بهم في حرب 1948 عندما داهمتهم السفينة نصر - وهي كاسحة ألغام صغيرة كانت واحدة من ثلاث قطع هي كل السلاح البحري المصري وقتها - في رأس السنة، كما أنهم لم ينسوا ما فعله قائد السفينة دمياط أثناء العدوان الثلاثي في سنة 1956 - وكان كل ما حصل عليه «عمر حمدي» من معلومات، لا يزيد على احتمالات، فالميناء مفتوحة للعديد من السفن الأجنبية التجارية التي تدخل وتخرج، كما أن وجود جاسوس في الميناء أو في الإسكندرية عمومًا، كان أمرًا واردًا..

غير أنه في تلك الليلة، لم ينم حتى الصباح، كانت رقعة الشطرنج، عندما تسلل ضوء النهار من النافذة المفتوحة، قد تحركت بعض قطعها المضادة.. وأصبح للرقعة الآن معنى!..

كان أول ما يشغل بال «عمر حمدي» هو ذلك السؤال الذي ظل يلح عليه منذ أن غادر الدكتور، ومنذ أن قطع غرفة «سوزي» في خطوتين دون أن يلقي عليها التحية ودون أن يلحظ تلك الابتسامة التي ارتسمت على شفتي الفتاة الشقراء: هل غيرت إسرائيل مركز تجسسها في أوروبا؟!

ولقد كان عليه قبل أن يسافر إلى الإسكندرية - أن يضع عددًا من الاحتمالات، ولقد كان عليه لكي يضع هذه الاحتمالات، أن يطلع على كل ما ورد من معلومات حول هذا الموضوع..

وهكذا.. ما إن غربت شمس ذلك اليوم، حتى كان «عمر حمدي» قد حدد طريقه جيدًا، وعرف أي الطرق يسلك..

ولذلك: فلقد سلك في صباح اليوم التالي الطريق الصحراوي إلى الإسكندرية!

■ ■ ■

بعد عشرة أيام بالضبط، كان القبطان «أنطونيو كاناليس» يقف في «الممشى» ناظرًا إلى الشاطئ المصري الذي كان يقترب، كان الجو ساطعًا بشمس الصيف الحارقة، وكان البحر يبدو أمام عينيه كبحيرة وادعة.. وكان ما يشغل ذهنه شخصين «مارسيل.. وماري لويز».

ها هو - بعد كل هذا العمر - يقع في الحب، المشكلة الحقيقية أنه يعلم عن يقين أن السنوات الستين التي يوشك أن يكتمل بها عمره، دخلا في هذه النار التي التهبت بها عواطفه.. قبل أن يراها كان يحيا مثل النورس، رحلاته فوق الموج تقوده إلى الشاطئ بين الحين والحين يشرب ويأكل ويحتوي بين ذراعيه امرأة يعرف كيف يرضيها ويعرف كيف يجعلها قادرة على إرضائه.. لم يكن غرورًا، بل كانت تجربة عمر حافل.. عمر بدأ يوم غادر لشبونة لأول مرة صبيًا في الثامنة عشرة من العمر، تطلَّع إلى البحر كما يتطلَّع الطائر إلى السماء، وهناك، في بداية تلك

الحياة اكتشف خيانة «كارمن» يوم عاد من إحدى رحلاته فوجدها قد تزوجت شابًا آخر.. ولم يغضبه الأمر، لكن أدمى فؤاده، منذ ذلك الزمان البعيد وهو يحيا كبحار، لم يرسم خطة أو يضع قرارًا، لكنه هكذا كان، ليس على الأرض شاطئ لم يرس عليه، وليس فوق الخريطة ميناء ليس له فيها امرأة.. حتى التقى بها، بماري لويز، في تلك الأيام التي تتفتت فيها مقاومة الرجل ويبدأ في الإحساس بنزول الثلج، ليس مهمًا لديه أنه أحبها فهو قادر تمامًا على التحكم في نفسه، لكن المزعج في الأمر حقًا، هو ذلك الإحساس الطاغي الذي يدفعه إلى الإحساس بأنها تحبه!!

هل هذا ممكن؟!

حتى ولو لم يكن ممكنًا فلقد حدث.. وهو يستطيع أن يقسم بالعذراء أنها تحبه، والدليل الدامغ على هذا أنها لم تبح له بحبها... ولقد أصابه هذا بنوع من الهستيريا، كان يشعر برغبة جارفة في شراء الكرة الأرضية ووضعها بين يديها، ولقد بدا ماله يتبخر.. وهذا ما لم يحدث له، وعندما كانت سفينته تصل إلى مارسيليا، كانت هي أسبق من السفينة إلى رصيف الميناء.. ولقد كان كل شيء يبدو ممتعًا حتى دخل حياته جوزيف بائع العطور.

انطلقت صفارة السفينة فصحا أنطونيو كاناليس من أفكاره، على مرمى البصر كان لنش الإرشاد يتأرجح فوق سطح المياه يحمل إليه صديقه الحميم، «مرسي الشتيوي».. وأشعل أنطونيو «البايب»

وارتسمت على شفتيه ابتسامة، إنه يحب مرسي وها هو مرسي يلوح له من بعيد!

■ ■ ■

لم يكن الأمر صعبًا بالنسبة لعمر حمدي على كل الأحوال، ورغم أنه كان قد مضى عليه في الإسكندرية ما يقرب من أسبوع أو يزيد قليلًا، فإن الخيوط كانت تتجمع في يديه، ورقعة الشطرنج تتخذ لها ملامح الصراع المحدد.

كان عليه أن يحدد المجموعة التي اختارها للعمل معه، وكانت مجموعته تتكون من عدد من الشبان الذين يعرفون كيف يفكرون.. كان أكثر ما يسليه في الأمسيات الحارة، هو ذلك البطل الجديد للمخابرات، والذي بدأ يغزو أسواق أوروبا كان «جيمس بوند» أو «العميل 007» يلهب أنفاسه رغم ما فيه من «فشر» كان يحبه، ولو كانت المهنة بهذه اللذة لتحول الناس كلهم إليهم.. غير أنه كان يفرغ من الكتاب في ليلة، وكان هذا يضايقه... وإذا كان تفريغ المعلومات التي وصلت إلى تل أبيب، ومقارنتها بيوميات الميناء قد حصر اتجاه تفكيره، فإن الفضل لا يرجع إليه بقدر ما يرجع إلى غباء الإسرائيليين.

أعظم ما في لاعب الشطرنج أنه يستطيع إخفاء هدفه من حركة قطعة، إن هذا الإخفاء هو سلاحه للنصر مهما راوغ الخصم، فكيف يقع هذا الضابط الإسرائيلي في خطأ صغير كالذي اكتشفه عمر؟!

بداية... كانت المعلومات التي وصلت إلى إسرائيل عن تحركات بعض قطع الأسطول صحيحة، كما كانت المعلومات التي حصلت عليها لحركة الميناء أيضًا صحيحة.. ولقد حدثت هذه التحركات في فترات زمنية محددة، فترات بعضها تفصل بينها أسابيع وفي بعض الأحيان تصل إلى شهرين، معنى هذا أنه ليس جاسوسًا مقيمًا بالإسكندرية ذلك الذي يمد إسرائيل بالمعلومات، لكنه جاسوس زائر، يأتي فوق إحدى السفن، ويقلع معها.. وفي هذه الفترات، كانت هناك سفن بعينها توجد في الميناء، سفن أجنبية وأخرى مصرية.. بعضها يكون حاضرًا، والبعض غائبًا، غير أن سفينة واحدة كانت تشترك في كل هذه الفترات، تلك هي السفينة التي يقودها القبطان «أنطونيو كاناليس».

■ ■ ■

راح مرسي الشتيوي - المرشد بميناء الإسكندرية وهذا هو اسمه الحقيقي؟ - ينظر إلى صديقه بإمعان، ثمة شيء، يتغير في طباع «أنطونيو كاناليس»، منذ سنوات طويلة والعلاقة بينهما تتوطد ليس حبه لماري لويز هو الذي يؤرقه رغم أن أنطونيو يؤكد له ذلك، طالما حدَّثه أنطونيو عن مغامراته مع النساء، وهو على يقين من أنه يحب ماري ولكن ليس إلى هذا الحد...

ولقد كان يجلس بجوار صديقه في السيارة وهما متجهان إلى الميناء، كان الليل قد انتصف منذ ساعتين، وكانا قد شربا ما يكفي لتلك الليلة

وما يكفي ليطلق لسان أنطونيو من عقاله، هكذا عرفه طوال السنوات التي مضت، ولكن ها هو القبطان يجلس صامتًا ساهمًا لا ينطق.

عند سلم السفينة توقفت السيارة وهبط القبطان مودِّعًا صديقه وصعد إلى الممشى، صاح ينادي «روبرتو» طالبًا مقعدًا، تمدد فوق المقعد وترك نفسه ليستجم في ضوء القمر!

بدا الأمر عندما همس جوزيف بائع العطور في أذنه بأن لديه نوعًا من العطور يندر أن يجده الإنسان، لم يكن يملك مالًا غير أن جوزيف استطاع أن يقنعه بالدفع في مرات قادمة.. لا يعرف حتى رأى جوزيف بائع العطور لأول مرة، غير أن مثله في كل موانئ الدنيا ينتشرون فوق ظهور السفن كالفيران في أعماقها، مرة بعد مرة ولقد تراكمت عليه الديون ثم إن سعادة «ماري لويز» كانت تفوق لديه كنوز الأرض، ذات مرة انتابته العصبية فراح يهدد طاردًا جوزيف من فوق ظهر السفينة آمرًا البحارة بألا يدعوه يصعد إليها مرة أخرى... ثم إنه في تلك الأيام كان يشعر بحب ماري لويز له يزداد.. سألته ذات مرة وهي تحتضن رأسه داخل صدرها العاري:

– مِن أين تأتي بالمال أيها العجوز؟!

وغمغم أنطونيو وهو يقبِّل ما بين نهديها:

– أنسيتِ أيتها الفتاة أني قبطان أعالي البحار!..

ورن صوتها المنبعث من صدرها في أذنه:

– إياك أن ترتكب مخالفات من أجلي!

رفع عينيه إليها فهمست له:

- إني أحبك.. وهذا هو الجنون بعينه غير أني أحبك حقًّا!

وكانت هذه هي المعضلة!

■ ■ ■

توقفت قطع الشطرنج عن الحركة لأيام..

كانت السفينة تحمل أربعين بحارًا، تغير منهم عشرون أثناء الرحلات الأخيرة.. وهكذا بقي أمامه عشرون آخرون.. وإذا كانت تصرفات هؤلاء البحارة قد وضعت بكل دقائقها تحت عينه طوال بقائهم في الإسكندرية، فإنه لم يجد مفرًّا من السفر..

كان هذا هو الجنون بعينه غير أنه تعود الجنون.

من العشرين كانت الشكوك قد انحصرت في خمسة، وإذا كان دليل عمر حمدي في كل ذلك هو إحساسه وتجربته، فإن هذه طبيعة رجل المخابرات، وكثيرًا ما دخل في مناقشات مع زملائه.. وإذا كانت المخابرات هي «علم الذكاء» وإذا كان هذا العلم هو الوحيد الذي لا يُدرس في الكتب بل يعتمد على التجربة، فطالما أرَّقه هذا الإحساس الغامر الذي كان ينتابه كلما تولى أمر إحدى العمليات.. كان هؤلاء الخمسة هم: كبير المهندسين ذو الجسد العريض واليدين المتسختين دائمًا، والذي لا يشرب إلا أردأ أنواع الخمور، وكان هناك «توني» ضابط اللاسلكي الذي يتقن اثنتي عشرة لغة من بينها العربية بثلاث

من لهجاتها إتقانًا تامًّا.. وثلاثة من البحارة بدت تصرفاتهم غريبة، لكنه اكتشف أنهم يتجرون في بعض المهربات، وكان هذا من الممكن أن يكون ساترًا ذكيًّا لعمليات تجسس من نوع خطر!

ولقد طلب «عمر» من مخابرات السلاح البحري المصري أن تقوم قطع الأسطول ببعض التحركات التي اتفق معهم عليها، كما أوعز إلى قيادة الميناء أن تنقل إحدى السفن التجارية المصرية من رصيف إلى آخر.. وقطع تذكرة على سفينة القبطان أنطونيو الذي بدا له، مع ما جمع من معلومات عنه، أنه أبعد الجميع عن الشبهات.. وكان هذا في حد ذاته، هو السبب الذي من أجله أراد «عمر» أن يسافر، وأن يضع نفسه داخل فم الأسد، وأن يعرض العملية كلها للضياع.. إن هؤلاء الذين يبدون بلا أخطاء، هم أكثر الناس دفعًا للظنون إلى رأسه!

وقبل أن يغادر الميناء كان قد رتب كل شيء.. وكان الرجال يعرفون تمامًا، وبدقة متناهية، ماذا عليهم أن يفعلوا، وكان هو قد رتب كيف يتصل بهم إذا أراد.. صعد إلى السفينة يرتدي نظارة طبية، وكان شاربه قد نما، وكان يرتدي بذلة مضى عليها أكثر من عشرة أعوام، وكان يحمل اسم: الدكتور عبد الواحد إسماعيل.. أما وظيفته فكانت: «أستاذ التاريخ القديم بكلية الآداب بجامعة القاهرة»!

■ ■ ■

وكلما اقتربت السفينة من مارسيليا، كانت طباع القبطان تزداد حدة.. وفي الكبائن والعنابر كان البحارة والضباط يتندرون بهذه الحدة، ولقد

انقسم رأي الرجال في قبطانهم بعضهم يحبذ حبه لماري لويز، وبعضهم يقول إن الحب لم يخلق لمن مثلهم.. وأحيانًا كانوا يذكرون هذا الراكب الغريب الأطوار، الصامت دائمًا المعتكف على تلك الكتب العتيقة التي كان يدفن نظارته بين سطورها آناء الليل وأطراف النهار، وكأنه يتغذى على الكلمات لا الطعام.

ولقد التقى أنطونيو ذات صباح البروفسور عبد الواحد، فاقترب منه وحياه، لكن البروفيسور المجنون رد التحية في جفاء وهرول مبتعدًا وكأنه يقطع الحديث..

ولم يكن لمثل هذا الحديث أن يشغل القبطان، فلقد كان ما يشغل ذهنه هو «مارسيل».. كان عليه أن يعطي الآن كلمته!

كان جوزيف قد استطاع الصعود إلى ظهر السفينة، لا يدري كيف فهكذا كانت تصعد الفئران لتصبح في نهاية الأمر حقيقة لا سبيل إلى الهرب منها.. وكان قد عرض عليه بدل العطور مالًا، وإذا ما قال له أنطونيو ذات يوم إنه لا يعرف من أين يسدد ما عليه من مال، جاءه الجواب من جوزيف بسيطًا!!

وبعد ثورته الأولى وغضبه وجد أنه لن يقع في خطأ، كان كل ما طلب منه أن يرى بعينيه، وأن يختزن في رأسه، وأن يدلي بما رأى واختزن في صوت خافت ومرتب.. وأن يحصل في مقابل هذا على مائتي دولار شهريًا..

ولقد قاوم في البداية غير أنه في أول زيارة له للإسكندرية، اكتشف أنه يراقب وأنه يحدد وأنه يحصر وأنه يختزن، وعندما عاد إلى مارسيليا استفزه جوزيف وابتز منه ما رأى وحصر واختزن، ثم نقده مالًا ومضى.

من أفواه الرجال والحمالين وموظفي الميناء في الإسكندرية كانت تتناثر المعلومات دون أن يسأل، أشياء عادية تحدث في الميناء، وفي كل ميناء، غير أنها كانت تجد صدى لدى جوزيف، لم يكن هناك دليل واحد ضده فهو لم يكتب ورقة ولم يخط كلمة، غير أنه عندما دُعيَ لمقابلة «مارسيل» عرف بما لا يقبل الشك أنه كان يتعامل مع المخابرات الإسرائيلية، عرف أنه كان يعرف ويخفي عن نفسه؟.. كان مارسيل واضحًا أشد الوضوح، أنهم يعقدون معه اتفاقًا ويرتبون له مرتبًا شهريًّا وينظمون له حياته.. ولقد طلب مهلة للتفكير فوافق مارسيل وابتسم، وكان أنطونيو يعرف طبيعة هذه الابتسامة، كان يعلم أنه لن يتراجع، فلقد تعاون معهم بالفعل مهما أنكر ذلك على نفسه..

في مساء اليوم التالي لوصوله مارسيليا كان يقبض بضع مئات من الجنيهات الإسترلينية، وكان يشرب من الزجاجة الثانية، وفي عيني «ماري لويز» كانت نظرة مرتاعة، أما الدكتور عبد الواحد إسماعيل، فكان يجلس الآن في غرفة مغلقة تطل على الميناء، وأمامه كانت رقعة الشطرنج، وكان هو غارقًا في التفكير، يدخن!

في تلك الليلة كان الرجال الخمسة، كبير المهندسين وتوني ضابط اللاسلكي والبحارة الثلاثة، يخوضون تجربة من ذلك النوع الذي لا يمارسه الإنسان.. كانوا يتحركون تحت أعين شديدة الدقة تحدد تمامًا كل حركة، يأتيها الواحد منهم. أما القبطان أنطونيو كاتاليس فلقد كان له شأن آخر.. كان يتعارك مع ماري لويز في بيتها، كان ثمة قلق يعتريها، كانت عصبية، وكانت سكرانة، وكانت تبكي في تلك الليلة قالت لأنطونيو إن «أيزاك» هو الذي دفعها إليه، وأنها خائفة عليه، فلقد أحبته، ويوم أقبلت عليه أقبلت كما كانت تقبل على كل رجل تعرفه، لكنها أحبته.. ولذلك فهي تحذره.. أن هؤلاء الناس يعيشون حياة بلا قرار.

ولقد مضى على تلك الليلة أربعة أشهر وكانت العلاقة بين القبطان «أنطونيو كاتاليس» وبين عشيقته «ماري لويز» تزداد سوءًا، وكان «البروفسور عبد الواحد إسماعيل» قد اختفى منذ غادر السفينة، لكنه كان موجودًا في مارسيليا.. ظل هناك طوال فترة بقاء السفينة في الميناء وقبل أن تبحر في رحلة العودة إلى الإسكندرية، غير أنه عندما عاد إلى مصر كان قد اكتشف شيئًا بدا له شديد الأهمية، فلقد نقلت إسرائيل مركز تجسسها في أوروبا إلى مارسيليا.. وكانت الشبهات كلها الآن تحوم حول الرجل الوحيد الذي بدا - من بين جميع أفراد طاقم السفينة - بعيدًا عنها، كانت الأصابع تشير إلى القبطان.. غير أن الأمر قد حسم ذات مساء في الإسكندرية، حسمه المرشد المصري «مرسي الشتيوي».

كان «عمر حمدي» على يقين الآن من أن أنطونيو هو الجاسوس، وكالعادة، استطاع رجل المخابرات المصري أن يتحكم في المعلومات التي يحملها الجاسوس أو يرسلها، فما إن تدخل سفينة القبطان إلى الإسكندرية حتى تجتاح الميناء حركة تخفي حقيقة ما بها، غير أن المشكلة التي واجهت «عمر» في تلك الأيام، كانت «الدليل » فكيف يقبض على «جاسوس» بلا دليل؟ كيف يثبت أن أنطونيو كان يرى ويختزن ثم يقول؟!

ولم يكن أمامه سوى الصبر!.. والانتظار!

■ ■ ■

وعندما دق جرس التليفون ذات صباح في غرفة «عمر حمدي» وكانت المكالمة دعوة إلى مقابلة هامة.. كان يتساءل وهو في الطريق إلى ذلك المكان المجهول هل وقع غريمه في ذلك الخطأ الذي ظل ينتظره لشهور طويلة؟..

وعندما وجد نفسه أمام المرشد المصري «مرسي الشتيوي»، لم يكن الأمر مفاجأة وإن تظاهر بذلك!! صافحه وجلس قبالته وراح يستمع إليه، وكان على يقين من أن القصة قد شارفت على نهايتها.

■ ■ ■

في مارسيليا كان الصراع قد احتدم بين أنطونيو وبين ماري، كانت ماري خائفة ترتعد على رجلها الذي كان ينزلق إلى طريق غامض، وكان أنطونيو قد وجد في مصدر المال الجديد، إشباعًا لرغبات بدت وكأنها

كانت مكبوتة في أعماقه طوال العمر.. ورغم ما كان بينهما من عراك وشجار، فإنهما لم يفترقا.. لم تكن ماري تستطيع المجاهرة بها في نفسها، ولم يكن أنطونيو يستطيع البوح بما يفعل، لكنه، مع كل يوم، كان ينزلق أكثر.

جاءه «مارسيل» - ضابط المخابرات الإسرائيلي، وليس هذا اسمه الحقيقي بكل تأكيد - ليطلب منه أن يجند شخصًا آخر.. ولم يكن أمام أنطونيو سوى صديقه «مرسي الشتيوي».. وعندما عرض عليه اسم مرسي ووظيفته، وافق مارسيل دون تردد، وأعطاه من المال ما كان يرى أنه كفيل بإغراء المرشد المصري..

وهكذا فاتح أنطونيو صديقه ذات يوم في الإسكندرية، وبرغم ما اعتمل في نفس مرسي الشتيوي من صراع، برغم ما عاناه من قلق - فلقد كان يحب أنطونيو - إلا أنه تظاهر بالموافقة..

وكان هذا هو ما قاله مرسي في ذلك الصباح لعمر حمدي..

وفي بساطة لم يكن مرسي ينتظرها بأي شكل من الأشكال.. طرح عمر المشكلة برمتها بين يديه.. كان أمام مرسي طريق من اثنين وكان عليه أن يختار.

إما أن يكتفي بالتبليغ ويكون قد أدى ما عليه من واجب..

وإما أن يستمر في تنفيذ خطة وضعها عمر للقبض على أنطونيو متلبسًا.. وكان هذا لمصلحة مصر!..

ووافق مرسي على الاستمرار.. وكانت المعلومات التي يمده بها «عمر حمدي» من الدقة، بحيث أثارت مخابرات إسرائيل، وجعلت مارسيل يغدق المال على أنطونيو حتى بلغ أربعة آلاف جنيه إسترليني، كما جعلته يطلب المزيد.. كانت المعلومات من الدقة بحيث تحركت قطع الغريم فوق رقعة الشطرنج في بلاهة جعلت الطريق إلى «الملك» مفتوحًا تمامًا..

وذات يوم من أيام الشتاء.. كان عمر حمدي يقف أمام رقعة الشطرنج قبل أن يغادر مكتبه، عندما حرك الوزير بضع خطوات وهمس: «كش.. مات!»..

ثم غادر المكتب!!

في مساء ذلك اليوم، كان كل شيء معدًّا..

دخل القبطان مع مرسي الشتيوي إلى أحد المطاعم الشهيرة بالإسكندرية، كانت المائدة التي اختارها تقع في ركن منعزل.. طلبا كأسين وراحا يتهامسان.. كان مرسي يشعر بكل ما يدور حوله، وعندما أخرج التقرير وقدمه إلى أنطونيو، كان هذا يخرج مظروفًا متخمًا بالمال ليقدمه له.. وفي تلك اللحظات بالذات، والمظروفان يجتازان المسافة الفاصلة بين الصديقين، جلس «عمر حمدي» بجوار أنطونيو وهو يهمس:

- مساء الخير!..

ولم يقل أحد من الرجال الثلاثة شيئًا.. تهاوت يد أنطونيو بالمظروف إلى المائدة، وامتقع وجهه.. نظر حوله فرأى رجلين يجلسان على مائدة كانت خالية منذ ثوان، وارتعد.. فلقد كانت نظراتهما صارمة.. وامتدت يد شاب لتأخذ المظروفين، وهمس الشاب وهو يجلس بجوار المرشد المصري مرسي الشتيوي:

- كابتن أنطونيو.. أنا وكيل نيابة الجمرك بالإسكندرية!..

وانتهى كل شيء!..

بعد بضعة أيام كانت شرفة «الإسكواش راكيت» قد ازدحمت بالمتفرجين.. وكانت المباراة في الملعب محتدمة.. وكان «عمر حمدي» هناك يلاعب سعيد. وكان مصممًا على الأخذ بالثأر!!

الســــوداني





السوداني

في أعقاب حرب يونيو 1967، سرى في القاهرة، كما في جميع البلدان العربية - وربما في العالم كله - اعتقاد راسخ بأن المخابرات الإسرائيلية قد استطاعت الوصول إلى نخاع الجهاز الحاكم في مصر.. وأنها مخابرات «لا تقهر» ولا سبيل إلى التغلب عليها!!

في تلك الأيام، لم يفتح أحد من هؤلاء الرجال القابعين خلف أسوار الصمت في كوبري القبة فمه بكلمة واحدة.. كانت «الحقائق» التي يملكونها أغرب من الخيال..

وهذه القصة واحدة من تلك «الحقائق» التي وقعت فيما بين عامي 1959 و1963، في القاهرة، الخرطوم، أسمرة، بون، بروكسل، فرانكفورت، و.. وتل أبيب.. و..

وهي قصة، مجرد قصة من عشرات القصص التي تزخر بها تلك الملفات السرية، التي إذا ما طلبت أن تنشر - كحقائق - على الناس، غمغموا قائلين: الأمن.. الأمن.. الأمن..!! وهذه هي حجتهم الكبرى للصمت العميق!..

في صباح يوم 6 ديسمبر عام 1963، كان واضحًا أشد الوضوح، أن ثمة حركة غير عادية كانت تجتاح «الموساد» - المخابرات العامة الإسرائيلية - ففي صبيحة ذلك اليوم كان الجميع في انتظار برقية من القاهرة.. وكان وصول البرقية يعني بالنسبة إليهم الكثير.. كان يعني أن الحلقة قد اكتملت، وأن العمل المضني والشاق، الذي بذلته مجموعة من أكفأ ضباط المخابرات الإسرائيلية على مدى أربع سنوات أنفقوا فيها ما يقرب من عشرة آلاف جنيه إسترليني سوف يكلل أخيرًا بالنجاح.. إن وصول البرقية كان يعني ببساطة أن ثمة قناة قد فتحت فيما بين أوروبا وإفريقيا، وأن المعلومات الهائلة التي تحملها هذه القناة سوف تصب بالتأكيد في تل أبيب.. بعد أن تكون مصر قد وقعت تمامًا تحت سيطرة المخابرات الإسرائيلية!..

وعندما دقت الساعة العاشرة تمامًا، فتح جهاز اللاسلكي مع القاهرة، وساد الصمت في غرفة الاستماع التابعة للموساد، وانطلق الصفير من الجهاز - في الموعد تمامًا - يحمل الرسالة بالشفرة التي تعودوا عليها طوال ما يقرب من أربع سنوات.. ولم يكن من الصعب حل الشفرة بسرعة، غير أن الكلمات التي تراقصت أمام عيني ضابط المخابرات الإسرائيلي، جعلت الأمر كله وكأنه نكتة، أو كارثة.. وطلب الضابط إعادة الإرسال مرة أخرى.. وعاد الصفير المتقطع من جديد قويًا، واضحًا، وعادت الرموز - هي هي - تتراقص أمام عينيه كألسنة لهب، نفس الرموز، نفس الحروف، نفس الكلمات.. هل هذا معقول؟. هل هو ممكن؟ وللمرة الثالثة طلب ضابط المخابرات الإسرائيلي من عميله

في القاهرة أن يعيد إرسال البرقية.. وعاد الصفير من جديد لينفجر في «الموساد» انفجارًا مدويًا.. كانت البرقية تقول:

- المخابرات العامة المصرية تبعث إليكم بشكرها على ما لقيته منكم من تعاون، وما قدمتموه لها من خدمات طوال السنوات الأربع الماضية.. وهي إذ تنهي معكم هذه العملية، لتنتظركم في عملية أخرى!!

■ ■ ■

ما إن انتصف عام 1959، حتى بات واضحًا أن المخابرات الإسرائيلية قد نقلت مركز تجسسها في إفريقيا، كانت دول إفريقيا تستقل الواحدة بعد الأخرى، وكانت إسرائيل تقفز إلى هذه الدول لتدق في أراضيها أوتادًا تساعدها على التغلغل إلى صلب البناء الاقتصادي والسياسي لدول القارة البكر الغنية.. وإذا كانت المخابرات المصرية في تلك الأيام، قد استطاعت أن تضع يدها على واحد من أخطر عملاء إسرائيل في القارة السوداء، وإذا كان هذا العميل يشغل مركزًا سياسيًا وشعبيًا حساسًا في إحدى الدول الإفريقية.. فلقد كان من الطبيعي أن تتسلل إسرائيل - عن طريق هذه الدولة - إلى السودان.

وفي الخرطوم، وبالتحديد في شارع الجمهورية، كان هناك محل خردوات صغير، يملكه يهودي اسمه «إبراهيم منشه».. وكان لإبراهيم منشه هذا بالذات تحركات بدت مريبة وتبعث على الشك، كان يسافر إلى أسمرة - التي تقع على نفس خط العرض، وعلى مسافة بضع مئات من الكيلومترات من الخرطوم - سفرات مريبة، كما كان يسافر أحيانًا

إلى أوروبا.. غير أن سهراته الحمراء التي كان يقيمها في بيته لأصدقائه من السودانيين، كانت بلا شك وسيلة فعالة لنشاطه السري..

ولقد تعرف إبراهيم منشه في أغسطس عام 1959 على شاب سوداني ولد في القاهرة، هو «إسماعيل صبري عبد الله» من أب سوداني وأم مصرية، وكان يشغل وظيفة كتابية في سلاح المهندسين بالجيش السوداني.. وفي بيت إبراهيم منشه بدأت العلاقة تنمو بينه وبين إسماعيل الذي كان يبدي دهشته الشديدة للإسراف الذي كان إبراهيم يغدقه عليه.. ويومًا بعد يوم، وليلة بعد ليلة، بدأت الأحاديث بين الصديقين، وإذا كان مرتب إسماعيل صغيرًا ولا يكفي لمجاراة صديقه في تلك السهرات الحمراء، فإن الصديق يعرض عليه أن يجد له عملًا بمرتب قدره ثلاثون جنيهًا في الشهر..

وقال إسماعيل: «إيدي على كتفك!..»

وفي البداية، ظن إسماعيل صبري عبد الله، أن المسألة كلها لا تتعدى الاشتراك في بعض عمليات التهريب.. ذلك أن الحديث مع إبراهيم، وإن كان غامضًا، إلا أنه كان يطوف حول السفر إلى القاهرة، أو أسمرة أو أوروبا.. وأبدى إسماعيل موافقته التامة.. كان يعرف طريقه إلى سلطات مكافحة التهريب.. غير أن ثمة شيئًا غريبًا جعله يتوجس شيئًا إلى الإلهام أقرب.. وإن كان الأمر يتعلق بالتهريب حقًّا، فلم اللف والدوران؟ ولم الغموض الذي يلف كل شيء؟!

لم يكن إسماعيل صبري عبد الله يعلم في تلك الأيام، أنه سوف يخوض تجربة العمر كله خلال السنوات القادمة، لم يكن يعلم أنه - بعد أن يوافق - سوف يوضع تحت مجهر الصبر والانتظار لما يقرب من عام كامل كان كفيلًا بأن يفتت أقوى الأعصاب..

ويوم أن قال له «إبراهيم» إن عليه أن يسافر إلى القاهرة ليجمع بعض الأخبار والمعلومات، انكشف الغموض، وأيقن إسماعيل أن عليه - إن وافق - أن يصبح جاسوسًا!!

كان الطريق إلى سلطات التهريب معروفًا.. ولكن. أين هو الطريق إلى رجال المخابرات»؟!

عند هذه النقطة بالذات، يصبح الأمر عسيرًا على التفسير.. فهل كان إسماعيل صبري واحدًا من رجال المخابرات العربية تسلل إلى عرين الأسد بشجاعة، أم أنه استطاع أن يتصل برجال المخابرات المصرية واضعًا الأمر بين أيديهم؟!

وإذا كانت «المعلومة» التي تقدمها المخابرات العامة المصرية تقول بالحرف الواحد: «إن المسألة لم تحتمل منه أكثر من حديث تليفوني وجد بعده رجل المخابرات المصرية يقف أمامه!».. إلا أن التجربة المريرة التي خاضها هذا الشاب السوداني تقول بوضوح: هل من الممكن أن يحتمل أي منًا، مثل هذه المخاطرة إلا إذا كان مدربًا تدريبًا على أعلى مستوى عرفه هذا العالم السري؟!..

وعلى كل.. فلقد أبدى إسماعيل صبري عبد الله موافقته الكاملة لإبراهيم منشه.. حتى يوم أن صارحه إبراهيم بأنه سوف يعمل مع المخابرات الإسرائيلية وافق وأصبح عضوًا في شبكة تمتد من الخرطوم إلى أسمرة.. وكانت الخطة الموضوعة، تأمل أن يصل ذراع الأخطبوط إلى ألمانيا..

ولكن كل شيء توقف فجأة..

كانت شبكات التجسس في القاهرة قد بدأت تسقط بشكل يلفت النظر، وإذا كانت المخابرات المصرية قد أعلنت عن «بعض» هذه الشبكات وأخفت ضبط البعض الآخر، فإن المخابرات الإسرائيلية رأت أن تجمد نشاطها، وأن تقبع ساكنة لفترة حتى يهدأ الجو تمامًا.. وهو تكتيك معروف في جميع أجهزة المخابرات في العالم.. لكنه تكتيك جعل إسماعيل صبري ينتظر، وهو على اتصال دائم بإبراهيم منشه، لعام كامل..

هنا.. وفي منطقة الانتظار هذه يصبح الأمر في منتهى الخطورة..

كان على إسماعيل أن يسير فوق شعرة، لا يتكالب ولا ينقطع، لا يثرثر ولا يبدي القلق.. كانت فترة الانتظار - فوق أنها كانت سكونًا ينطلق بعده الثعلب الإسرائيلي من جديد - اختبارًا للعميل الجديد ومدى قدرته على الاحتمال..

في يوليو عام 1960 استدعت المخابرات الإسرائيلية إبراهيم منشه إلى أسمرة.. المركز الجديد الذي اتخذته المخابرات الإسرائيلية لنشاطها

في إفريقيا.. وكان التقرير الذي قدمه إبراهيم منشه عن إسماعيل صبري من الدقة بحيث كلفته بإرسال إسماعيل إلى أسمرة فورًا..

■ ■ ■

فيما بعد قال إسماعيل صبري عبد الله، إنه - في خلال السنوات الأربع التي عمل فيها مع المخابرات الإسرائيلية لحساب المخابرات المصرية - شعر بالخوف ثلاث مرات، كانت المرة الأولى في بنسيون كاليتيا بأسمرة..

كان إبراهيم منشه قد زود إسماعيل بجواز سفر، وقدم له تذكرة الطائرة من الخرطوم إلى أسمرة، ونصحه بالتوجه إلى بنسيون كاليتيا فور نزوله من المطار.. وفي هذه الحالات لا ينبغي على الجاسوس أن يسأل أو يستفسر.. ولكن عليه أن يطيع فقط، ولقد أطاع إسماعيل صبري.. ركب الطائرة وفي ذهنه جملة ظل ضابط المخابرات المصري يرددها في أذنه: لا تتصنع، ولا تدع الشجاعة، إذا انتابك الخوف فاترك نفسك له ولا تقلق.. ولقد ترك إسماعيل صبري نفسه للخوف بالفعل عندما واجهه «يوسف»، وهذا اسم ضابط المخابرات الإسرائيلي الذي التقى به في البنسيون، كانت لحظات غريبة تلك التي مر بها هذا الشاب السوداني الذي رفض أن يخون، دقق يوسف في عيني إسماعيل وسأله:

- إنت مصمم تشتغل معانا؟!..

- أيوه مصمم!..

و.. و.. وبدأت بعد ذلك سلسلة لا نهاية لها من الأسئلة الاختبارية، أحس إسماعيل في نهايتها أنه أصبح منهكًا.. وكان آخر ما قاله «يوسف»: مهمتك ستكون في القاهرة؛ ثم تركه ومضى...

وظل إسماعيل في غرفته بعد ذلك - حسب التعليمات - لا يغادرها، ظل جالسًا وحده يضرب أخماسًا في أسداس، ماذا لو اكتشفوا أمره، وهل يعقل أن يكون ذكاء المصريين أعلى من هذا النوع من الذكاء الوحشي الذي واجهه في عيني يوسف.. ساعة بعد ساعة.. جاء الليل وانتصف، وعندما فتح الباب توترت أعصاب إسماعيل، لكنه بعد دقائق، ودون كلمة، كان يسلك طريقًا خفيًا ودون أن يراه أحد من نزلاء البنسيون، لينتقل في نفس الليلة إلى فندق فيكتوريا بشارع هيلاسلاسي.. وهناك، كان عليه أن يظل لخمسة عشر يومًا كاملة في تدريب شاق.. وإذا كان يوسف هو الذي اصطحبه من بنسيون كاليتيا إلى فندق فيكتوريا، فإن ضابطًا إسرائيليًا آخر كان في انتظاره هناك، ضابط اسمه «ليون»، وكان ليون هو مدربه في التصوير والتحميض الفوتوغرافي، كان مدربه في كتابة الخطابات بالحبر السري، وبالشفرة وإخفاء الأفلام و.. و.. وكان عليه بعد التدريب أن يعود إلى الخرطوم لينفذ ثلاث مهام:

الأولى: أن يستقيل من عمله.. والثانية.. أن يتسلم من إبراهيم منشه أدوات كاملة للتصوير.. والثالثة: أن يبدأ العمل وإرسال المعلومات لهم على العنوان التالي في أسمرة: «جرماي تسفو ص.ب. 65».

لكن إسماعيل عاد إلى الخرطوم ليقدم استقالته، ويبحث عن إبراهيم منشه فلا يجده.. وأرسل لهم قائلًا: إن الاستقالة قد قبلت لكن «منشه» ليس موجودًا في الخرطوم.. فعادوا يطلبون منه أن يظل بالخرطوم!

إلى هنا، ومن الممكن أن يبدو كل شيء عاديًّا.. ولكن كيف؟!

كيف يكون إبراهيم منشه عميلًا إسرائيليًّا بهذه الخطورة، ولا تعرف مخابراته أنه ليس موجودًا بالخرطوم في الوقت الذي أرسلوا له فيه عميلًا مثل إسماعيل؟!

سؤال يطرحه الذهن ليجد الإجابة: «فلقد كانت رحلة إسماعيل هذه - دون شك - لمراقبته، ومعرفة ما إذا كان على اتصال بأي أحد.. ولقد كان إسماعيل على اتصال بالمخابرات المصرية بالطبع، بل، ولقد التقى بضابط المخابرات المصرية بالطبع، وقص عليه ما حدث وتلقَّى منه التعليمات، ولكن اتصالاته كانت من الدقة والسرية بحيث استدعوه مرة أخرى، ليدربوه على الاستماع الدقيق للإشارات اللاسلكية، وليرفعوا مرتبه من ثلاثين جنيهًا فقط، إلى مائة جنيه إسترليني في الشهر الواحد.

■ ■ ■

وصل إسماعيل إلى القاهرة في أوائل شهر ديسمبر عام 1960، وكان مزودًا بكل شيء، وكانت التعليمات الصادرة إليه واضحة أشد ما يكون الوضوح، لكن أهم ما في هذه التعليمات هو تجنيد ضابط في سلاح الطيران المصري.. فهل كان من الصعب عليه أن يقوم بمهمته؟!

لقد قامت المخابرات المصرية بأخطر لعبة من الممكن أن يلعبها جهاز مخابرات في العالم كله!..

ليس مبعث الخطورة أن حياة إسماعيل صبري عبد الله، وهو مواطن عربي وضع عنقه على كفه وخاض معركة يستخدم فيها أرقى أنواع الذكاء البشري فقط.. بل كانت الخطورة تكمن في «الهدف» الذي تسعى إليه المخابرات المصرية..

في تلك الأيام كانت المخابرات الإسرائيلية تلعب لعبتها في أوروبا.. كانت معسكرات الشباب اليهودي في ألمانيا تحاول أن تبث في وجدان الشباب الألماني الإحساس نفسه بالذنب تجاه اليهود.. ومن خلال هذا كانوا يستخدمون الشباب الألماني لمصلحة إسرائيل. ولقد كان واضحًا منذ البداية، أن ثمة قناة سوف تمتد بين الشباب الإفريقي والشباب الأوروبي لخدمة أغراض إسرائيل.. وكان هذا في حد ذاته «هدفًا» وضعته المخابرات المصرية نصب أعينها.. فهل كان مقدرًا لها أن تنجح؟!

كانت المعلومات التي أرسلها إسماعيل إلى أسمرة شديدة الأهمية، وشديدة الخطورة في نفس الوقت.. كان أهم هذه المعلومات على الإطلاق، أن إسماعيل استطاع تجنيد ضابط في السلاح الجوي المصري.

وكانت المفاجأة التي تلقاها إسماعيل، ويقينًا كانت مفاجأة للمخابرات المصرية، أن أسمرة أرسلت تطلب من إسماعيل أن يعود!!

وكانت هذه هي المرة الثانية التي شعر فيها إسماعيل بالخوف.

قال إسماعيل عن هذه المرة:

- جلست أمام ثلاثة من ضباط المخابرات الإسرائيلية جاء اثنان منهم خصيصًا من تل أبيب، وظل الثلاثة لساعات طويلة يلاحقونني بالأسئلة، أسئلة أسئلة أسئلة.. حتى جاءت لحظة فكَّرت فيها.. ماذا لو قتلوني، لو مزقوني، لو أذابوني في محلول.. لن يشعر أحد!

وعندما جاء الاستدعاء من أسمرة إلى إسماعيل.. كان هناك احتمالان لا ثالث لهما.. الاحتمال الأول أنهم قد ابتلعوا الطعم الذي ألقمتهم إياه المخابرات المصرية. ذلك الطعم الذي تمثل في المعلومات التي وضعت بدقة متناهية.. فليست أية معلومات تصل إلى جهاز مخابرات من عميل تؤخذ كقضية مسلم بها، إنها توضع تحت عشرات الاختبارات. وتدخل عددًا لا بأس به من العقول الإلكترونية تمتحن صدقها ودقتها.

وكان الاحتمال الثاني، أن الأمر كله قد انكشف، وأن العملية كلها قد ضاعت، وأن - ربما - حياة إسماعيل قد تصبح في خطر داهم..

وقبل أن يستقل إسماعيل الطائرة إلى الخرطوم، كان قد لقن تمامًا بما يجب عليه أن يفعله، كيف يجيب عن كل سؤال يوجه إليه.. كيف يتصرف في المأزق كيف يبدو، كيف - حتى - يتنفس!

وكانت المفاجأة التي صفق لها البعض - في صمت!! - أن نتيجة الاختبارات المضنية لم تأت بالمرجو منها فقط، بل قرر الخبراء الثلاثة أن إسماعيل صالح تمامًا للتدريب على الإرسال والاستقبال اللاسلكي،

وأنه قادر على تمييز الأسلحة وأنواعها، وتفنيد المعلومات وتصنيفها.. و.. وظل إسماعيل في أسمرة أربعة أشهر كاملة. أربعة أشهر بدت للشاب السوداني وكأنها دهور بعد دهور، كان يتلقى خلالها تدريبات عنيفة على كل شيء.. كما كان أيضًا تحت مراقبة من نوع رهيب مراقبة كانت تحصي عليه أنفاسه، بل وأحلامه!!

وليس هذا تعبيرًا لغويًا بأي معنى من المعاني.. فبالفعل يصبح حساب الأحلام في مثل هذه الحالات أمرًا شديد الضرورة.. أما كيف يحدث هذا؟.. فهذا أمر لا يعلمه إلا المتخصصون!

بعد أربعة أشهر ركب إسماعيل الطائرة من أسمرة إلى الخرطوم.. ومن الخرطوم إلى القاهرة!

■ ■ ■

عندما كانت اللعبة تدخل دورًا آخر شديد الخطورة.. عندما راحت المخابرات المصرية تتبادل مع المخابرات الإسرائيلية رسائل الشفرة بالمئات، حدث ما لم يخطر ببالهم هناك، لكنه كان بالطبع واليقين، يخطر ببال الذين هنا!!

وقع إسماعيل في الحب.

وكما تزوج أبوه من فتاة مصرية وقع في حبها.. تقدم إسماعيل لخطبة فتاة مصرية بعد أن أعطته المخابرات المصرية النور الأخضر.. ولكن، كان عليه أن يتصرف في المأزق.

وإذا كانت ثقة الإسرائيليين به قد بلغت حدًّا جعلهم يرسلون إليه في القاهرة عميلًا لاستلام بعض الخرائط والصور، فإن السخرية والاطمئنان بلغت بالمصريين حدًّا جعلهم يتركون العميل الإسرائيلي يدخل إلى القاهرة، ويلتقي بإسماعيل، ويأخذ منه الوثائق، ويخرج بها آمنًا.

وبدأ إسماعيل صبري عبد الله يعاني في حبه.. كانت خطيبته إذا ما سألته عن موعد الزواج تهرب.. لم يكن يدري متى يستطيع الزواج.. كان «عميلًا مزدوجًا» بارعًا، وعبقريًّا، نعم.. لكنه كان بشرًا يحب.

ولقد كانت خطيبته مغرمة به، فصبرت، وابتلعت عشرات الأسئلة التي لم تجد لها جوابًا.

ثم.. ثم استدعته إسرائيل إلى أسمرة مرة أخرى.. وكانت هذه المرة هي الخوف بعينه، كانت العملية كلها تصل الآن إلى ذروة درامية. فلقد كان هذا – فيما يبدو – اختبارًا نهائيًّا تمهيدًا لفتح تلك القناة المروعة بين شباب إفريقيا وشباب ألمانيا..

يومها.. سقط قلب إسماعيل بين قدميه..

قال إسماعيل:

– في هذه المرة أخذوني إلى بيت معزول في أطراف المدينة – أسمرة –كان البيت كئيبًا يقوم في مكان خالٍ من البشر والمباني، وهناك أغلقوا علي الأبواب والنوافذ وتركوني وحدي تمامًا، لا خادم ولا رفيق، لا

حس ولا حركة وتعليماتهم الصارمة المشددة: اوعى تبص من الشباك، اوعى تخرج من الباب، اوعى حد يحس إنك هنا!

وطوال الليل لم ينم إسماعيل، ولم يغمض له جفن.. هذه المرة لو قتل فعلًا فلن يشعر مخلوق على وجه الأرض أن شيئًا قد حدث.. لم تكن هذه فقط هي المشكلة، كانت المشكلة أشد غموضًا، فعندما هبط من الطائرة في مطار الخرطوم قادمًا من القاهرة كان يظن أنه - لو سافر أسمرة - فلسوف يسافر بالطائرة كما تعود.. لكن الأوامر التي صدرت إليه أن يسافر إلى أسمرة عن طريق البر، وبدون جواز سفر.

ولقد سافر إلى أسمرة بطريق البر، ولم يكن معه بالفعل جواز سفر، وعند الحدود بين السودان وبين الحبشة كان كل شيء مرتبًا وممهدًا، ودخل إلى أسمرة، ووصل إلى هذا البيت المنعزل وليس هناك ما يثبت حتى مغادرته للسودان..

كانت أيامًا مضنية تلك التي سبقت التعليمات الجديدة التي أعطيت له..

ولقد تحمل إسماعيل صبري عبد الله الكثير، وضاعف من جهده وهم يدربونه من جديد، وعلى مستوى أعلى في الإرسال، والاستقبال اللاسلكي.. وعندما انتهت فترة التدريب عاد إسماعيل إلى مصر مرة أخرى كان هذا في النصف الثاني من عام 1963، وكانت سنوات أربع قد مضت منذ أن حاول تاجر خردوات يهودي في 111 شارع الجمهورية بالخرطوم، واسمه «إبراهيم منشه» تجنيد إسماعيل صبري

عبد الله لحساب المخابرات الإسرائيلية.. أربع سنوات اكتملت فيها الخطة هنا وهناك.. وأصبحت القناة جاهزة الآن لتتدفق فيها المعلومات بدقة متناهية من مصر إلى أوروبا إلى تل أبيب. ولقد كانت مخابرات إسرائيل تستعد لهذا اليوم - أيضًا منذ سنوات، عندما وضعت أعينها على «هوتير نميستر فروالد»، الطالب الألماني الذي كان يجيد الإنجليزية والفرنسية واليونانية واللاتينية والعبرية غير لغته الأصلية.. والذي دخل معسكر الشباب اليهودي ليصبح جاسوسًا لإسرائيل، وليسقط - في أول عملية له - في أيدي المخابرات المصرية، وليحدث سقوطه دويًّا هز أرجاء «الموساد»، وجعلهم يطلبون إعادة برقية ساخرة، ثلاث مرات، وكأنهم فقدوا السمع.

■ ■ ■

جلس إسماعيل صبري عبد الله بجوار خطيبته، كان في تلك الليلة يبدو كأنه قد أزاح من فوق كاهله عبئًا ثقيلًا.. وكان وجهه يوحي بالراحة، نظرت إليه خطيبته وراحت بالحب تحاول أن تستشف ما وراء هذا الإحساس الغامض بالراحة..

- ما لك يا إسماعيل؟!

- نظر إليها مبتسمًا ولم يرد..

- إسماعيل.. مالك؟!

- افتحي التليفزيون.. فيه برنامج كويس عاوز أتفرج عليه..

وفتحت الفتاة التليفزيون لترى خطيبها على الشاشة أمام عينيها.. إسماعيل الجالس بجوارها بدمه ولحمه.. كان يتحدث ويقول إنه كان جاسوسًا لإسرائيل.

وأطلقت الفتاة صرخة واحدة، ثم سقطت مغشيًّا عليها.

■ ■ ■

كان إسماعيل قد سجل حديثًا تليفزيونيًّا يروي فيه القصة كاملة..

و.. ولقد كان فروالد شابًّا ألمانيًّا يعشق اللغات، وكان طبيعيًّا أن يتعلم اللغة العبرية، وكان مدرسه اليهودي هو «الفراز» الذي دفعه إلى معسكر الشباب اليهودي في ألمانيا.. وكان هذا المعسكر بالذات هو «هدف» المخابرات المصرية، كان بمثابة معمل لتفريخ الجواسيس في ألمانيا.. ولقد اختبر «فروالد» بعناية ليكون وعلى مدى عامين أول من يخترق القناة الموصلة فيما بين إفريقيا وأوروبا.. وكان «هدف» المخابرات المصرية أن تكشف طبيعة هذا المعسكر فتدمره..

ولقد جاء «فروالد»، وكان يحمل معه من الوثائق ما يثبت كل شيء.. وقبض عليه في نفس اللحظة التي التقى فيها بإسماعيل..

■ ■ ■

كانت المفاجأة بالنسبة لخطيبة إسماعيل مذهلة.. وكان هو - وقد أفاقت من الإغماء يفسر لها كل الغموض الذي أحاط به لأربع سنوات كاملة.. كان قد أرسل آخر البرقيات إلى الذين خدعهم بذكاء فاق

ذكاءهم.. فلقد تبادل معهم 600 إشارة لاسلكية و15 خطابًا بالشفرة، و40 طردًا من القلويات المصنوعة بمعرفة الخبراء، و4 طرود تحتوي على نقود مخبأة بطريقة سرية بعثت بها مخابرات إسرائيل..

■ ■ ■

و.. كانت إشارة الشكر من المخابرات المصرية إلى المخابرات الإسرائيلية..

ويظل السؤال معلقًا:

هل كان إسماعيل صبري عبد الله مجرد شاب سوداني وقع اختيار الإسرائيليين عليه لكي يحولوه من مواطن عربي إلى خائن.. أم.. أم أنه كان شيئًا آخر؟ رجل دخل لعبة الذكاء من أخطر أبوابها، وتعرض للموت، والضغط، ولعبة الصبر.. وانتصر؟!

المجهول





المجهول

في داخل هذا العالم المليء بالأسرار والغموض.. تنفجر بين الحين والحين تراجيديا من نوع عنيف.. تراجيديا يقف أمامها هؤلاء الرجال الذين تعودوا أن يخوضوا في أرض زرعت بأخطر الألغام، حائرين.. إن الإنسان يتمتع - مهما كانت يده مغموسة في الواقع والخطر - بقدر كبير من الحساسية، وعندما تنفجر بين يديه مأساة من نوع معين، فإنه ينفعل بها انفعالًا قد يفوق انفعاله لو أن الذي انفجر بين يديه كان لغمًا شديد الانفجار! ولقد كانت مأساة هذا الجاسوس تحتوي على «مجهول» ظل يشكل علامة استفهام كبيرة، حتى عندما أسدل الستار على الفصل الأخير، ظلت علامة الاستفهام تؤكد أن هذا المجهول، كان في ثنايا النفس البشرية كالميكروب المتعسر على الكشف!!

سرى صوت المضيفة في جو الطائرة الدافئ، تطلب من الركاب أن يربطوا الأحزمة ويكفوا عن التدخين.. كانت ميونيخ تبدو الآن من الجو مغلّفة بضباب السماء، غير أن مبانيها كانت ترتفع في الهواء كصناديق صغيرة بعثرت على ملعب للأطفال!

وفي العقد الذي يحمل رقم 102 كان يجلس المهندس أحمد عبد ربه، رجل الأعمال المصري الذي اتسعت أعماله الآن لتشمل العديد من بلدان أوروبا وآسيا، والذي أصبح مصنع البلاستيك الذي يديره في روض الفرج، ينتج أنواعًا من البلاستيك غمرت أسواق إفريقيا ووصلت إلى آسيا.. وإذا ما أراد أحد أن يراجع هذا الاسم في الغرفة التجارية، فإنه يقينًا سوف يعثر على مهندس يملك مصنعًا بهذا الاسم، وحتى نقابة المهندسين سوف تجد اسمه مدرجًا في قوائمها، ولقد كان جواز السفر صحيحًا مائة في المائة، كما كانت كل الأوراق التي يحملها هذا الراكب في حقيبته الخاصة، أو في حقيبة ملابسه منضبطة تمامًا، ليس فيها خطأ واحد..

أطفأ المهندس «أحمد» سيجارته مطيعًا لأوامر المضيفة الحسناء التي منحته في ذلك الصباح البارد ابتسامة دافئة.. كانت سوزي سمراء مصرية التقاطيع دعجاء العينين، ذات شعر أسود فاحم.. غير أن أجمل ما يلفت النظر فيها، كانت تلك الابتسامة المشرقة التي إذا ما بدت، غمرت تقاطيع الوجه كله!

ولقد لاحظ عدد من الركاب أن سوزي تبادلت مع الراكب الشاب كلمات أطلق بعدها ضحكات خافتة، كما لاحظوا أنها ألحقته بعدد لا بأس به من فناجين القهوة السوداء.. كان أحمد يبدو وكأنه يستطيع أن يغزو عالم النساء بنفس القدرة التي يغزو بها عالم المال.. ففوق الخاتم الذهبي الثمين الذي كان يحلِّي أحد أصابع يده اليسرى كانت ملابسه،

وتسريحة شعره توحي بأننا أمام شاب مصري يعيش حياته في أوروبا، وينعم بقدر لا بأس به من الثراء..

وعندما دارت الطائرة فوق مطار ميونيخ دورتها الأولى، كان أحمد قد غرق في التفكير لأذنيه.. ولكن أحدًا - بالطبع - لم يكن يعرف ما الذي كان يدور في ذهنه في تلك اللحظات الغريبة، كانت لحظات تشعره دائمًا بأن الدم يركض في عروقه، عندما يقترب من الخطر، وعندما يواجه «المجهول» لأول مرة!

ومنذ أن وقعت هزيمة يونيو عام 1967، خلع الإسرائيليون برقع الحياء، نسوا هزائمهم المثالية في معارك الذكاء العنيفة، كما نسوا كل ما لحقهم من عار تحدثت به أجهزة المخابرات في العالم كله.. وإذا كان أحمد - كضابط من ضباط المخابرات المصرية - يتمتع بقدر من الرومانتيكية غير مستحب في مثل عمله هذا الخطير، فإنه في بعض الأحيان كان يُدفع في هذا الاتجاه وهو يرى كيف انطلقت إسرائيل، في كل أرجاء الأرض، تجند الجواسيس وتسقط الشباب والرجال، وتدفع بالعيون، من كل جنسية ومن كل ملة، إلى مصر، إلى قلبها تريد أن تنهشه!

كان اسمه الحقيقي هو «عمر حمدي»، وكانت النكسة قد ثبتت في رأسه بضع شعيرات بيضاء أضفت على شبابه نوعًا من الرجولة الآسرة.. وكان في طريقه إلى «ميونيخ» للكشف عن جاسوس بدا لهم في القاهرة، وكأنه أصبح يتحرك في ملعب ليس به غيره؟!

هبطت الطائرة أرض المطار، وفي نفس اللحظة التي لامست فيها عجلات الطائرة الممر انبعثت من عينيه نظرة غريبة، استقبلتها «سوزي» بسرعة جعلتها تخفي عن أشد العيون ذكاء..

وعندما استقبل «عمر حمدي» - أو المهندس أحمد عبد ربه - هواء «ميونيخ» البارد وهو يخرج إلى سلم الطائرة.. رمى ببصره إلى مبنى المطار، وكان يعلم أنه منذ هذه اللحظة قد بدأ مشواره الخطر..

كانت القصة قد بدأت منذ خمس سنوات بالتحديد في عام 1962.

في ذلك العام وفي بداية الصيف كانت مصر كلها تنتظر الثانوية العامة.. وفي تلك الأحياء التي تتكدس فيها العائلات المنتجة للأطفال، يصبح لتلك الأيام من كل سنة مذاق خاص.. ويسود الحديث بين الرجال والسيدات والآباء والأمهات والشبان والفتيات، حول النتيجة، ولجان الرأفة، ومكتب التنسيق والجامعات.. وفي حي «روض الفرج»، وفي شارع يحمل اسم «الكركي» وفي شقة بأحد منازل هذا الشارع.كان «سمير» وسط عائلته ينتظر ظهور النتيجة.. ولقد ظهرت وكان مجموعه 41٪ فقط!

في تلك الليلة نشبت معركة عنيفة بين «سمير» وبين والده.. كان الأب موظفًا يقترب من سن الإحالة إلى المعاش، وكان الأولاد يملئون البيت عليه ضجيجًا ومصروفًا وعذابًا كان يصبه على «سمير»، الذي بالرغم من «خيبته» في المدارس كان يبدو «دون جوان» لا يهتم إلا بتصفيف شعره والعناية بملابسه وملاحقة الفتيات.. ولقد كان «سمير» حقيقة

شابًا متفتحًا، كان فهلويًا خفيف الظل سريع الحركة يعشق الحياة بعنف.. غير أن قسوة الأب عليه جعلته كارهًا لهذه الحياة التي عشقها.. ويوم أن ظهرت النتيجة بلغ الجدل بين «سمير» ووالده هذه الدرجة التي كان يتصاعد إليها الخلاف بسرعة.. وانهالت في تلك الليلة ضربات الأب على وجه الابن.. ضربات قاسية لا ترحم.. ولم يتدخل أحد، بل، لم يفكر أحد في التدخل، فلقد كانت صيحات الأب وصرخات «سمير»، وأصوات الصفعات والشتائم، من علامات البيت المميزة..

ولقد مضت الشهور، مضت رهيبة مليئة بالعذاب، لم يجد «سمير» كلية تقبل هذا المجموع الهزيل، ولا أحد يدري كيف فكر «سمير» في السفر لا أحد يعرف، على وجه يقيني، كيف ومن أين جاءته الفكرة.. غير أنه عندما أعلن في البيت أنه سوف يسافر إلى أوروبا جاءه الرد من والده: «في ستين داهية!».

وعندما وضع «سمير» قدمه لأول مرة على أرض ألمانيا الغربية. لم يكن يعرف كلمة واحدة من اللغة الألمانية.. غير أن هذه العقبة لم تكن توقف طموح «سمير»، ولم تكن لتوهن من عزيمته.. كان - إذا ما مرت به الأيام وأقيمت أمامه العراقيل والعقبات - يتذكر مصر، ويقترن ذكرها بوالده، بالبيت، بالسباب، بالشتائم، بالصفعات.. كان إذا ما تلفَّت خلفه لا يرى سوى الكراهية فيشد من قامته، ويتابع السير، أي سير.. ويتابع البحث، أي بحث عن أي عمل..

كانت تلك أيامًا غريبة، أيامًا جاءت عليه كاد يموت فيها من الجوع، وأيامًا جاءت عليه كاد يموت فيها من البرد.. ولكن: كان الموت - جوعًا أو بردًا - أرحم عنده من العودة..

وبمثل هذا الإصرار، وبمثل هذا التصميم استطاع «سمير»، بعد أن درج في اللغة الألمانية خطوات، أن يجد عملًا في إحدى الشركات بمدينة ميونيخ..

يومها.. استعاد نشاطه، واستعاد «فهلوته»، واستعاد ابتسامته، وأصبح معروفًا عنه في الشركة أنه نشيط، حَبوب يعرف كيف يقيم علاقات مع الآخرين وكيف يكسب ودهم!!

■ ■ ■

في المطار.. كانت إجراءات الجوازات قد انتهت بالنسبة للمهندس «أحمد عبد ربه» رجل الأعمال المصري، وكانت المضيفة «سوزي» قد تأخرت في الطائرة لبعض أعمالها.. وعندما كانت تغادر مبنى المطار كان أحمد لا يزال هناك.. وعندما وقفت وصافحت «سمير»، كانت تبدو وكأنها تعرفه منذ فترة طويلة، وتعالت ضحكات «سمير»، وتناولت أسئلته عن مصر وأحوالها وعن الركاب ولقد أعطته «سوزي» كل ما يريد، وحانت منه - أثناء الحديث - نظرة نحو المهندس الشاب الذي كان الآن يخرج إلى المدينة.. لم يكن «سمير» يعلم أن «عمر حمدي» قد «نقضه» من رأسه إلى أخمص قدميه، وأن صورته قد انطبعت في مخيلته المحفورة بقوة التدريب على الحفظ، ورغم أن «سمير» راح يتحدث

بالعربية بصوت عال حتى يلفت أنظار هذا المهندس المصري الأنيق، فإن صاحبنا مضى وكأنه لم يسمع شيئًا.. كان يبدو وكأنه يعرف طريقه جيدًا، لذا.. فلقد مضى إلى خارج المطار لا يلوي على شيء..

وعندما ركب «عمر» سيارة تاكسي، كان يعلم يقينًا أن مسألة العثور على الفندق الذي يقيم فيه سهلة كالبحث عن رقم مدرج في دليل التليفون.. وكان الآن يستعد للجولة الخطرة..

■ ■ ■

في عام 1967 كان قد مضى على «سمير» قرابة أربعة أعوام وهو يعيش في «ميونيخ» وإذا كان البعض قد اقتربوا منه قبل ذلك بقليل، فلم يكن من الصعب على أحد معرفة ميول «سمير» العدوانية تجاه بلده..

مجهول...

هو شيء بالفعل مجهول ولا يمكن تفسيره..

وخلال هذه السنوات الأربع لم يزر «سمير» مصر مرة واحدة، لا قبل النكسة ولا بعدها. وخلال تلك السنوات لم يرسل «سمير» لأهله في مصر سوى عدد يقل عن أصابع اليد الواحدة من الخطابات.. كان «الفراز» الإسرائيلي أمام خامة جاهزة تمامًا. لم يكن هذا المجهول الذي يدفع شابًّا مثل «سمير» إلى الحديث عن مصر بعداء هو معاملة والده له.. فالعلاقة بين الآباء والأبناء، مهما بلغت حدتها، تذوب الحدة فيها مع الأيام، تذوب مع الغربة، تذوب مع الإحساس بالاستقلال.. ولقد كان «سمير» الآن مستقلًّا، وكان غريبًا، وكان مغتربًا لسنوات طويلة..

ولقد تعوَّد صاحبنا أن يجلس على مقهى اسمه «برنسيس» في «ميونيخ»، في هذا المقهى كان يلتقي بالأصدقاء والصديقات.. بل كان يعقد الصداقات والصلات.. استخدم قدرته الفذة وخفة ظله في ربط حياته بأرض ميونيخ وكأن فيها الخلاص.. وهل كان من الصعب على «هانز موللر» أن يعقد صداقة مع «سمير» في ذلك اليوم من أيام عام 1967؟!

«هانز موللر»، «ماكس»، «چورج» كلها أسماء كانت معروفة تمامًا لرجال المخابرات المصرية وعيونهم المنبثة في أربعة أركان الكرة الأرضية، أسماء تتغير لوجوه ثابتة لا سبيل إلى تغييرها بتغيير المكان.. ولا أحد يدري على وجه اليقين متى علمت المخابرات المصرية بهذا اللقاء.. إنهم هناك - هؤلاء الرجال القابعون خلف أسوار الصمت في كوبري القبة - سيقولون لك - كما تعوَّدوا دائمًا - أن هناك من جاء وأبلغ، أن حرصهم الشديد على «التوعية» وتنبيه الناس، يتضافر مع حرصهم على إخفاء «الأسلوب» الذي يعتبر قمة القمم في السرية والكتمان. ولقد كانت المعلومات المتوافرة لدى «هانز موللر» عن «سمير» كافية لأن يفاتحه في الأمر مع اللقاء الثاني مباشرة.. لم يكن «سمير» في حاجة إلى تمهيد، ولم يكن في حاجة إلى مصيدة تورطه.. قال له هانز في اللقاء الثاني:

- هل تريد أن تكسب مزيدًا من المال؟!

ورد عليه «سمير» وهو يتقافز في جلسته:

- من يجرؤ على رفض المال؟!

- أنا ضابط المخابرات الإسرائيلية!

كم ستدفعون؟!

- حسب نشاطك وقدراتك!

وكان أمام «سمير» بعد هذا الحوار السريع طريقان:

إما أن يجمع أكبر قدر من المعلومات عن مصر من خلال المصريين الذين يقيمون في ألمانيا أو يترددون عليها.

وإما أن يقوم بعقد صلات مع المصريين الذين يجيئون إلى ميونيخ لتجنيد الصالح منهم لحساب المخابرات الإسرائيلية!

و...

واختار «سمير» أن يسير في الطريقين معًا؟!

مرة أخرى نعود إلى هذا «المجهول» الكامن في نفس «سمير» كجرثومة متوحشة..

لم تكن مصر في أواخر عام 1967 تحتمل خائنًا مثل «سمير».. ولقد كان «سمير» يعلم هذا يقينًا.. وأبدًا، لم تكن تلك الكراهية التي تضخمت في نفس ذلك الشاب المتفتح الفهلوي المَحبوب القادر على عقد الصلات والصداقات وحَلب الهواء لبنًا في أرض الغربة.. أبدًا لم يكن هذا هو الدافع له للخيانة والاستهانة، بل - وهذا هو المبكي في الأمر كله - وإلى الحماس في العمل وتجنبه الراغبين في الانزلاق وبذل الجهد في تدمير الوطن بعد كل ما أصابه..

وتحت يدي «عمر حمدي» كانت كل المعلومات التي يقف لها شعر الرأس هولًا.. كان الغرض من سفرته تلك هو اصطياد «سمير» والمجيء به إلى القاهرة لا أكثر، ولم تكن هذه عملية صعبة، كان الصعب هو هذا الذي وقع في أيدي الرجال في القاهرة.. وإذا كان «سمير» يتقاضى مرتبًا شهريًا قدره 500 مارك، علاوة على 300 مارك يتقاضاها عن كل مصري يتم تجنيده، بخلاف المكافآت والمصاريف، فما الذي كان يدفع «الأب» «أبو سمير» الذي تجاوز الستين وأحيل إلى المعاش، أن ينزلق خلف ولده بمثل هذا الاستخفاف وهذه السهولة؟!

كان «عمر حمدي» يعلم الآن وهو جالس في الفندق أن «الأب» هو الآخر قد أصبح جاسوسًا في مصر، وأن ولده هو الذي جنده.. كما كان يعلم - يقينًا - أن «سمير» يجلس الآن في «هول» الفندق وعيناه على المصعد في انتظار المهندس «أحمد عبد ربه»، الذي جاء إلى ميونيخ لعقد صفقة تجارية لحساب مصانعه في روض الفرج.. نفس الحي الذي نشأ فيه «سمير» وتربى..

وخلال العامين الماضيين استقبلت أوروبا، وألمانيا الغربية - بالتحديد - أعدادًا من المصريين لم يسبق أن رأته المطارات والموانئ.. كان المصريون - والشباب منهم بنوع خاص - يزحفون إلى الخارج بحثًا عن شيء ما، جاءتهم النكسة كصاعقة غير منتظرة قصمت منهم الظهر فراحوا يبحثون عن السبب في كل مكان.. ولقد كان من السهل على «سمير» أن يقف في المطار كلما جاءت طائرة القاهرة كي «يلاقي» هؤلاء القادمين من أرض الوطن، كان من السهل عليه أن يعقد الصداقات مع

موظفي المطار حتى لا يرتاب أحد في كثرة تردده عليه.. كان من السهل عليه أن يساعد المصريين الآتين بحثًا عن عمل أو متعة، وكان من السهل عليه أن يفتح مسكنه للذين لا يملكون أجر الفنادق المرتفع في أوروبا، وكان من السهل عليه أن يرشد أولاد بلده إلى المتاجر والملاهي و.. ودور المتعة التي أنشأتها مخابرات إسرائيل في طول أوروبا وعرضها.. ومهما كان الأمر، فلو أنك صادفت مصريًّا في بلد غريب، فإن حنينك إلى الدم واللغة يدفعك إلى وضع ثقتك فيه ومهما كانت حاجتك، ومهما كانت رغباتك، فلقد كنت دائمًا ما تجد «سمير» «جاهزًا» تمامًا لتلبية أي شيء تريد، حتى ولو كان «لبن العصفور»..

■ ■ ■

هبط «عمر حمدي» إلى هول الفندق يحمل مفتاح غرفته، وفي لمح البصر، في نفس اللحظة التي غادر فيها المصعد، كان قد شمل المكان كله بنظرة سريعة، وكان قد حدد - بالضبط - أين يجلس «سمير». وعندما خطا نحو مكتب استعلامات الفندق، كان يقيس بإحساس اكتسبه بالتدريب المسافة التي تفصله عن «سمير» مع كل خطوة كان يخطوها، وعندما سلم مفتاح غرفته واستدار، كان يعلم يقينًا أنه سوف يصطدم بـ«سمير»، فتعمَّد أن ينطق «متأسف» باللغة العربية، وكأنه أخذ بالصدمة.. وكان في هذا الكفاية، كان فيه الكفاية ليتهلل وجه «سمير» وهو يصيح مرحبًا:

- متأسف... الأستاذ عربي؟

وهكذا ألقى «عمر» طعمه لـ«سمير».. وبدأ يجذب السنارة ببطء وحذق..

كان عمر قد علم من الأب كيف تم تجنيده، فبعد خمس سنوات أو ست انقضت منذ رأى «سمير» والده لآخر مرة في بيته الكائن بشارع الكركي بروض الفرج.. وجد «سمير» نفسه أمام أبيه في ميونيخ فجأة وعلى غير انتظار.

ودون تمهيد بدأت المعركة..

- انت ما تعرفش إني انحلت على المعاش؟!

- يا بابا..

- ليه ما بتبعتش فلوس علشان نعرف نعيش؟!..

- ما هو انت...

- أختك بتتجوز.. أجيب منين علشان أجوزها؟

- انت عاوز إيه؟!

- عاوزك تخلي عندك دم.. هو احنا مش أهلك.. هو أنا مش أبوك!

و.. وأعطاه «سمير» ما أراد من مال، فقط أعطاه المال ليرحل عنه، ليتركه، كي لا يذكره بالماضي.. وأخذ الأب المال وعاد إلى مصر.. لكنه عاد فأرسل يطلب مزيدًا من المال، ولم يرد «سمير».. كانت حياته الجديدة قد امتصت كل جهده، وكان قد استطاع أن يقدم للمخابرات الإسرائيلية عددًا لا بأس به من العملاء. وكانت القاهرة في تتبعها لتلك

الحركة النشطة، ولذلك الشاب الذي أصبح وكأنه كرس حياته لخدمة العدو، قد وضعت يدها على الخيوط جميعًا.. كل ما فزع له الرجال الذين لا يعرفون الفزع.. هو انزلاق الأب العجوز وبمثل البساطة التي يشعل بها الإنسان سيجارته، لم يجد «سمير» وسيلة يتخلص بها من أبيه، إلا بدفعه، بنفسه، إلى يدي «هانز موللر».

كان الأب قد استسهل السفر إلى ألمانيا لمطالبة ابنه بالمال، وكان الابن، كلما ألحّ الأب، ازداد ضيقًا بمطالب أبيه.. وكأنما كان هذا «المجهول» قد أمده بقوة خارقة على الإيذاء، فلقد قدم أباه إلى «هانز موللر» على أنه صديق له، ثم تركهما معًا ومضى لعمل وهمي.

وكانت المفاجأة سارة لضابط المخابرات الإسرائيلي.

فما إن فاتح الأب في الموضوع، حتى رحب الأب، واتفق معه على مرتب شهري، فوق مكافأة تصل إلى 1000 مارك لكل خطاب يحوي معلومات مهمة.

كيف يمكن تفسير الأمر؟!

هكذا كان «عمر حمدي» يفكر وهو يجلس إلى «سمير» في بار الفندق بعد أن قدم كل منهما نفسه للآخر.. كيف يمكن تفسير تكالب الأب على عمله بنشاط رهيب.. كان قبل مغادرته ألمانيا قد تدرب على الكتابة بالحبر السري، والحصول على المعلومات بإثارة الغير، ووسائل المناقشة والمراقبة والفحص.. وعندما عاد إلى مصر اكتشف أنه يستطيع أن يجني ألوف الماركات ببساطة لم تخطر له على بال.. كان يجلس ذات مرة في أحد

المحال فسمع شابًّا يتحدث إلى حبيبته عن وحدة الصواريخ التي يعمل بها وعن أسلوب تشغيلها، فكتب هذا إليهم، كان يركب الأوتوبيس فيسمع من الناس إشاعات ومعلومات فيكتبها إليهم، كانوا يقولون له اكتب لنا بكل شيء مهما كان تافهًا.. فكتب وكتب وكتب، حتى أسعار الطماطم كان يكتبها.. فهل كان يدري قيمة هذا بالنسبة للحرب النفسية الضارية التي كانت إسرائيل تشنها علينا في تلك الأيام؟.. لم يفاتح ابنه بما فاتحه فيه «هانز موللر»، كما أن الابن لم يفاتح أباه بما فاتحه فيه «هانز موللر» أو في طبيعة عمله، كان كل منهما يعرف ما الذي يفعله الآخر لكن أحدهما لم يصارح الآخر.. وهكذا.. هكذا وجد هذا «المجهول» الكامن كالجرثومة المدمرة بين الأب وابنه، حتى في الخيانة!

في تلك الليلة كان المهندس «أحمد عبد ربه» يدردش مع «سمير» حول مشروعاته.. وكان على يقين وهو يلقي بالطعم، من الخطوة القادمة، قال «سمير»:

- أنا أعرف واحد هنا في ميونيخ ممكن يساعدك على الحكاية دي؟!

- ابتسم «أحمد عبد ربه» في وقار، ونفث دخان سيجارته وسأل «سمير»:

- عاوز كام كوميشان؟!

هكذا يتحدث رجل الأعمال.. وهكذا اطمأن «سمير» تمامًا عندما سأله الرجل عن النسبة التي يطلبها كسمسرة.. وهكذا تحدد موعد لكي

يقابل «عمر حمدي» ضابط المخابرات المصري، «هانز موللر» ضابط المخابرات الإسرائيلي، للاتفاق على الصفقة!

■ ■ ■

هنا تكمن ذروة الخطر.. ولم تكن «اللعبة» كلها «سمير» أو والده، كانت اللعبة تضم عددًا لا بأس به من الشبان الذين سقطوا في أيدي «سمير» وهانز، وإذا كان البعض منهم قد عاد إلى القاهرة ليبلغ ويكمل حلقة المعلومات التي توفرت لجهاز المخابرات المصري، فإن البعض الآخر لم يفعل ذلك، وكان «عدد» هذا البعض الآخر لا يزال غامضًا لا يبين..

وليس الذكاء من صفات رجل المخابرات المصري وحده، وإلا كنَّا كمن يدفن رأسه في الرمال ويخلق حول هؤلاء الرجال أساطير لا ظل لها من الحقيقة.. أن بعضًا من رجال المخابرات الإسرائيلية يتمتعون بقدرات غير عادية على هذا النوع من المعارك التي يتقرر فيها مصير أخطر الأمور.. ولقد كان «عمر حمدي» ضابط المخابرات المصري جاهزًا تمامًا في اليوم التالي وفي الموعد المحدد للقاء.. كان يعلم أن من سيقابله سوف يحسب بالدقة كلها حركاته وكلماته.. وإذا كان هو قد تسلح بميكرفون صغير دقيق ليسجل الحديث مع جهاز في حجم علبة الكبريت، فلقد كان يعلم يقينًا أن خصمه قد فعل نفس الشيء وربما أكثر بما لا يدريه عما يتفتق عنه الذهن البشري من أجهزة شديدة الحساسية والخطورة..

كان الموعد في المساء في مقهى قليل الرواد خافت الضوء..

كانا كثعلبين يستعدان للنزال.. كل الفرق بينهما أن الثعلب المصري كان يعلم ما سيقوله الثعلب الإسرائيلي، وكان خوفه من شيء واحد.. أن تبدو عنه حركة، أو تصدر عنه كلمة، إذا ما وضعت تحت مجهر الدراسة والفحص، كشفت عن حقيقته..

وتم اللقاء..

■ ■ ■

أطلق «عمر حمدي» ضحكة مجلجلة سعيدة وأنا أسأله عما كان يشعر به لحظتها، تهدلت خصلة من شعره - الذي أصبح اليوم رماديًّا رغم أنه لم يصل بعد إلى الأربعين - فأزاحها بيده. نفث دخان سيجارته وقال:

- أبدًا.. في الحالات دي الواحد مننا بينسى نفسه، بيبقى مهندس فعلًا، بيبقى «أحمد عبد ربه» أو بيبقى رجل أعمال، في اللحظات دي بتحصل حاجة غريبة، بيوصل خوف الواحد على البلد درجة بتنسيه نفسه!

كان «عمر حمدي» عندما تقمص شخصية المهندس «أحمد عبد ربه»، يعلم يقينًا أن هناك من سيذهب إلى مصنع البلاستيك الصغير في روض الفرج ليسأل، وليجد أن صاحبه هو المهندس «أحمد عبد ربه» فعلًا، وأن رجل الأعمال المصري ليس موجودًا في مصر، بل مسافر إلى الخارج، إلى ألمانيا بالذات!!

ومنذ ما يقرب من ستة أشهر كانت «بيوت الملذات» الإسرائيلية في «ميونيخ» قد استقبلت عددًا غريبًا من المصريين الذين كانوا يتلهفون على المتعة رغبة منهم في التعويض.. كانت المعلومات التي وصلت إلى القاهرة عن هذه «البيوت» الإسرائيلية تحوي أسرارًا مضحكة مبكية.. إن بعض هؤلاء الشبان الذين اصطادهم «سمير» وقدمهم إلى «هانز موللر» دخلوا هذه البيوت، ووسط الأضواء الحمراء والشراب واللحم الأبيض والنشوة في ذروتها، كانوا يعرضون عليهم أفلامًا ملونة لشخصيات عربية في أوضاع يندى لها الجبين.. وكان بعض هؤلاء الشبان يصدم وهو يرى رجلًا له مكانته واسمه ومركزه هاربًا كما ولدته أمه في حضن امرأة ما.. ربما كانت هي نفس المرأة التي ترتمي في أحضانه الآن.. كانوا - في هذه البيوت التي أنشأها جهاز المخابرات الإسرائيلي - يدمرون في الشباب العربي كل احترام لبعض شخصياته.. من هؤلاء الذين دمرتهم هذه الأفلام.. اثنان من الشبان كانت المخابرات المصرية تسعى وراءهما في طول أوروبا وعرضها، بعد أن انزلقا، وخانا، وراحا يضربان الأرض بحثًا عن مأوى بعد أن انكشف أمرهما.

ولقد طالت المباراة بين «عمر حمدي» و«هانز موللر» في هذا المقهى الخافت الضوء قليل الرواد في أحد شوارع «ميونيخ» الهادئة.. طالت المباراة وتعددت اللقاءات وخطا عمر داخل عرين الأسد، لكنه كان يعرف مواطئ قدميه.. لم «يندلق» لكنه أبدًا لم يمانع شأنه شأن رجل الأعمال الشاب.. غير أن «هانز موللر»، «اندلق» تمامًا، وابتلع الطعم حتى نهايته.. كان هذا عندما بدرت من عمر بعض المعلومات المهمة

عن الصناعة في مصر وكأنها جاءت عفو الخاطر، وسال لعاب الثعلب الإسرائيلي عندما راح المهندس «أحمد عبد ربه» يتحدث عن الاقتصاد المصري حديث العارف بدقائق كانوا في أشد الحاجة إليها!!

وعندما حان موعد السفر للقاهرة كانت هناك اتفاقات مبدئية، لكنها ليست نهائية.. وكان «سمير» في وداع صيده العظيم في مطار «ميونيخ»..

وعندما أقلعت الطائرة من المطار وحلَّقت في الجو، كانت حقيبة عمر السوداء الصغيرة تحوي الآن من الأسرار ما كان كافيًا تمامًا.. وعندما نظر من نافذة الطائرة إلى المدينة وقد لفها الضباب تنفس في ارتياح..

■ ■ ■

بعد حوالي ثلاثة أسابيع وصل إلى «سمير» خطاب من المهندس «أحمد عبد ربه»، وكان يطلب منه الحضور إلى القاهرة لبحث بعض خطوات الاتفاق تمهيدًا لتوقيع العقد..

ولقد ظل «عمر حمدي» كمن يحبس أنفاسه لأكثر من ثلاثة أسابيع أخرى.. حتى جاءته برقية تنبئ بموعد وصول «سمير» إلى القاهرة!

في المطار كان المهندس «أحمد عبد ربه» في انتظار «سمير»، وكان هذا قد اصطحب معه - لفرط الثقة في نفسه - شابين ألمانيين فتى وفتاة أرادا السياحة في مصر لعشرة أيام.. ولقد قام «أحمد» بالواجب، وتم بحث الخطوات بينه وبين «سمير»، فتم الاتفاق تمامًا.. وعندما أبدى الجاسوس رغبته في اصطحاب صديقه وصديقته في زيارة للأقصر

وأسوان، حجز لهم «أحمد» في قطار الصعيد مقصورة كاملة.. ولقد سافر الثلاثة إلى أسوان، وإلى الأقصر.. وقضى الجميع وقتًا خرافيًّا.. وبعد أسبوع كان القطار يتهادى بهم داخلًا إلى محطة القاهرة..

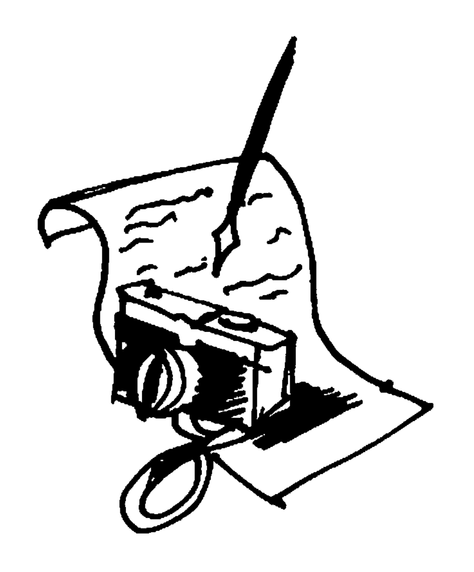
وفي المحطة كان «أحمد» في انتظارهم، لكنه هذه المرة لم يكن وحده.. كان معه عدد من الرجال ذوي الملامح الجامدة.. ولم يفهم الشاب الألماني وصديقته شيئًا مما كان يحدث أمامهما.. كل ما حدث هو أن طلب «عمر» من «سمير» أن يودع صديقته ففعل، وسار بين الرجال طائعًا في صمت نحو سيارة سوداء اللون، وكان يبدو شاحب اللون تمامًا.. أما هما، فركبا سيارة أخرى أوصلتهما إلى الفندق مع الاحترام الشديد.. والواجب.

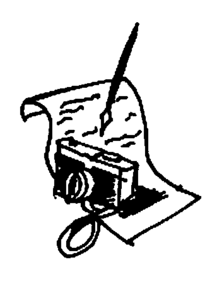
في أحد دهاليز مبنى المخابرات العامة المصرية، كان «سمير» يسير صامتًا، كان الآن قد أيقن أنه وقع، فانهار تمامًا.. وعندما تقدم أحدهم إلى باب إحدى الغرف وفتحه، دلف منه «سمير» ليجد والده قد سبقه إليها!

أفظع ما كان في اعترافات «سمير»، هو ما يتعرض له بعض المصريين في الخارج، في بيوت المتعة التي أنشأتها إسرائيل خصيصًا لاصطياد العرب، وإغراقهم في الملذات، وتجنيدهم، أو على الأقل معرفة بعض المعلومات التي ينفلت بها اللسان أحيانًا في لحظات النشوة!.. ثم تصويرهم عرايا، وتسجيل أحاديثهم الماجنة!! غير أن الأفظع من هذا،

هو «المجهول» الذي بدا كامنًا كالوحش الغامض في نفس الأب والابن معًا وقد كاد كل منهما يمزق الآخر في لحظة المجابهة.

الســـــاذج





الساذج

منذ البداية، كانت الأخطاء التي وقع فيها هذا الجاسوس قاتلة.. وكان من الممكن أن يتم القبض عليه ومحاكمته في الشهور الأولى لبداية نشاطه المهم.. غير أنه كان من السذاجة، بحيث تركته المخابرات المصرية عشرة أعوام كاملة، وهو يدبج التقارير ويراسل «الموساد» عبر جهاز اللاسلكي، من قلب حي من أشد أحياء القاهرة ازدحامًا.. ثم، ولأن حرب أكتوبر كانت مندلعة بالفعل، قبضوا عليه!

في النصف الثاني من العقد الخامس من هذا القرن، برزت فكرة عقد مؤتمر للدول الإفريقية الآسيوية، الذي حقق أول اجتماع له في باندونج نجاحًا مذهلًا، ومن خلال هذا المؤتمر، الذي كان بمثابة نقطة تحول في السياسة العالمية، وبروز دور دول الحياد أو عدم الانحياز أو ما أطلق عليه فيما بعد، دول العالم الثالث.. برزت قيمة مصر وإمكانيات قيادتها الشابة - في ذلك الوقت - على مجابهة الاستعمار وتشكيل قوة دولية وضع لها كلا المعسكرين، الشرقي والغربي، ألف حساب..

وكان أن اختيرت «القاهرة» لتكون مركزًا للسكرتارية الدائمة للمؤتمر الإفريقي الآسيوي وأصبح لكل دولة إفريقية وآسيوية مندوب دائم في هذه السكرتارية، وبالتالي فلقد كانت هذه السكرتارية تشكل مركزًا مهمًا من مراكز الحركة السياسية في العالم.

الأمر المهم في هذا الموضوع، أن إسرائيل - في تلك الأيام - حاولت أن تنضم إلى المؤتمر بصفتها دولة آسيوية. وكانت معركة انتصرت فيها الشعوب العربية، بل، القيادة المصرية بالتحديد، التي استطاعت بالدبلوماسية والإقناع، أن تضع إسرائيل - لأول مرة - في مكانها الحقيقي على خريطة العالم كدولة معتدية ومغتصبة لأراضٍ لا تملكها..

من هنا، كانت أهمية الوصول إلى قلب سكرتارية المؤتمر الإفريقي الآسيوي، ذلك، أن ما كان يحدث من اجتماعات داخل السكرتارية، وما كان يؤخذ من قرارات، كان بالضرورة، يشكل أهمية خاصة بالنسبة لإسرائيل التي عزلت عن هذا العالم حاولت فيما بعد التغلغل فيه.. بل، والسيطرة على بعض دوله..

■ ■ ■

كانت البداية هناك.. في باريس.. بالتحديد، عندما خطا نبيل خطواته الأولى إلى بهو فندق جورج الخامس في حي الشانزليزيه.. ورغم أنه كان قد تألق بكل ما يملك من جهد وطاقة وملبس جديد، فإن مظهره كان يبدو شديد التواضع وسط ذلك الجو الفاخر المهول الذي استغرقه حتى النخاع منذ الدقائق الأولى..

كان نبيل واحدًا من موظفي سكرتارية المؤتمر الإفريقي الآسيوي الذين وقع عليهم الاختيار للسفر إلى كوناكري للتحضير للمؤتمر الإفريقي الآسيوي القادم، والذي كان سيعقد في عاصمة غينيا.. لم يكن نبيل واحدًا من نزلاء الفندق بطبيعة الحال، فلقد كان - مع زملائه - ينزلون بأحد الفنادق المتواضعة في العاصمة الفرنسية.. كان أمامهم يومان أو ثلاثة، ثم يطيرون بعدها إلى جنيف.. ثم كوناكري.. وكانت هذه الأيام الثلاثة، كافية تمامًا، لأن تحدث البداية..

غير أن البداية الأولى كانت بعيدة كل البعد، كانت البداية عندما هاجر الأب اللبناني الأصل من بيروت إلى مصر.. كان رجلًا تقيًا متدينًا، يعمل ممرضًا مع إحدى البعثات التبشيرية، لكنه في مصر، في السويس بالتحديد، أحب فتاة مصرية فتزوجها، وأقام في مصر نهائيًا، وأنجب ثلاثة أولاد وخمس بنات.. وكان نبيل واحدًا من الأولاد الثلاثة!

وكما يحدث كثيرًا في الأسر المصرية، بل، كما حدث في رواية «بداية ونهاية» لكاتبنا الكبير نجيب محفوظ توفي الأب فجأة، وترك عائلته بلا عائل سوى نبيل..

كان نبيل يحلم بأن يدخل كلية الطب وأن يصبح طبيبًا، غير أن إمكانيات الأب الذي أنجب ثمانية أولاد يريد أن يعلمهم، لم تساعده على ذلك، فكان أن أدخل نبيل مدرسة التجارة المتوسطة، وتخرج فيها، وكان من أول الموظفين الذين عينوا في سكرتارية المؤتمر الإفريقي

الآسيوي التي أنشئت في عام 1958، ولم يمض عام حتى توفي الأب، وأصبح نبيل هو العائل الوحيد للأسرة..

ببساطة، كان نبيل يعمل ليل نهار، كان يعمل بالسكرتارية في الصباح، وفي مكتب للآلة الكاتبة في المساء، حتى إذا ما جاءت رحلة كوناكري عام 1960، وكان طريق السفر إليها عبر القاهرة، باريس، جنيف، كوناكري.. كانت هذه فرصة العمر.. سافر إذن، وهو لا يدري ما يخبئه له القدر، سافر وهو لا يعلم ما تخبئه له نفسه!!

كان على الموظفين أن يمكثوا في باريس بضعة أيام، ولم يكن أمام نبيل، الذي تعوَّد أن يكون وحده دائمًا، سوى أن ينزل إلى شوارع باريس، يتسكع ويشاهد، ويقف أمام الفترينات مبهور النفس بما يرى من أضواء وغنى.. حتى كانت ليلة...

ليلة كان يقف فيها أمام إحدى الفترينات التي تعرض من الملابس ما يسيل له لعاب أي شاب من أبناء الدول النامية، وتصادف أن وقف بجواره شخص له مظهر الأجانب، وإن كانت ملامحه تشي بشيء من الشرق.. وحدَّثه الشخص بالفرنسية، وارتبك نبيل، فهو لا يعرف الفرنسية وإن كان يجيد الإنجليزية ويجيد كتابتها على الآلة الكاتبة. وما إن تلعثم، حتى ضحك صاحبنا هذا وحدثه بالعربية..

صاح نبيل: «حضرتك بتتكلم عربي؟؟!»

ورد الشخص: «أنا اسمي حسن!»

وتصافح الشابان في حرارة، وكانت سعادة نبيل، وهو يسمع اللغة العربية، باللهجة المصرية الخالصة، في قلب باريس وأضواء باريس، تفوق الوصف، كان وكأنه عثر على كنز!

في تلك الليلة، قضى نبيل وقتًا طيبًا، كان حسن هذا مصريًّا يدرس الطب في باريس.. هكذا قال له الشاب! - كان إسكندرانيًّا قحا، ينطق الحديث مسبوقًا بنون الإسكندرية الشهيرة، ويمط الحروف كأي ابن بلد من الأنفوشي أو السيالة.. وفي الليل، وبعد كأس أو اثنين.. كان الحنين قد استبد بحسن، فراح يسأله عن مصر وأحوال مصر.. راح يشكو له الغربة والوحدة والشوق.. ومما لا شك فيه، أنه رغم تأثر نبيل الشديد بما كان يسمع، فإنه كان سعيدًا غاية السعادة..

في آخر الليل.. سار معه حسن متسكعًا في شوارع الشانزليزيه الباهرة.. وأوصله حتى باب فندقه المتواضع... ولكن، على موعد للقاء في الغد.. في المساء، في نفس البار الذي كانا يجلسان فيه..

■ ■ ■

كان كتومًا بطبعه.. كان منطويًا ينظر إلى زملائه من خلف غلالة المسئولية التي ألقيت على عاتقه.. في تلك الليلة أمطره زملاؤه بالعديد من الأسئلة، كانوا معًا ساعة أن خرجوا للتسكع فأين اختفى، ولم يكن كاذبًا عندما أخبرهم أنه «تاه»، لكنه لم يذكر أين كان، ومع من كان!..

كان حسن بالنسبة إليه كنزًا أراد الاحتفاظ به وإخفاءه، ربما، لأن هذا كان جزءًا من تكوينه، وربما - وهذا هو الأرجح - لأن حسن أسر إليه أن يكتم الأمر، فلقد أحبه وهو يريد أن يلتقي به وحده.

صدفة هي أم أن الأمر كان مدبرًا أن يكون حسن بالذات طالبًا مصريًّا يدرس «الطب» حلم الأحلام والأمنية المتبددة مع الفقر وقلة الحيلة.. لا أحد يدري غير أن الأمر - دون أدنى شك - كان له وقعه العنيف على نفس نبيل.. ولقد كان في الموعد المحدد تمامًا، يقف أمام البار الذي اتفق مع حسن على اللقاء فيه.. كان مفعمًا بالسرور دون شك.. فلقد وعده حسن أن «يعطا» معًا هنا وهناك، أن يريه باريس وخفايا باريس.. غير أن أمرًا كهذا، لا يمكن أن تكتمل بهجته قبل أن يشربا كأسين في مكان يستطيع حسن أن يدفع فيه ثمن الكأسين.. ففي باريس تستطيع أن تشرب كأسًا وتدفع فيه فرنكًا واحدًا، وتستطيع أن تشرب نفس الكأس، في مكان آخر، وتدفع فيه ما يوازي مرتب شهر كامل!

في البار.. جاءت جلستهما بجوار چورچ..

هنا، ليس هناك مجال للتخمين. هنا، تصبح الخطوة والحركة، بل وحتى الكلمة، مدروسة مرسومة ومعدة بدقة وذكاء لا سبيل إلى النفاذ منها..

وإذا ما «احلوت القعدة»، وتبع الشابان كأسًا بكأس، وإذا ما كان جارك وحيدًا يشرب هو الآخر، وإذا ما أفلتت منك كلمة بصوت عال،

فلا بد أن يتصل الحديث.. ولقد اتصل، ومال «چورچ» عليهما بكلمة ورد عليه حسن بكلمة.. لأننا: «هنا في أوروبا الناس بسيطة مش معقدة زي عندنا»!

نفس الكلمات، ونفس الأسلوب، ونفس الذهن المخطط الذي يعرف كيف ينفذ من نقط الضعف عند الصيد الجديد.. وإذا كان حسن قد «لضم» مع چورچ، فلا بد أن يشترك نبيل في الحديث، وإذا كان الحديث قد امتد فلم يجلس چورچ وحده، لم لا ينتقل إليهما.. ولقد انتقل چورچ وجلس معهما، وقدم لهما نفسه كصحفي في إحدى وكالات الأنباء.. وما إن ذكر نبيل وظيفته في المؤتمر حتى تهلل وجه چورچ.. لقد كان يزمع السفر إلى كوناكري، لتغطية أنباء المؤتمر للوكالة، كان يزمع السفر رغم أن مشاغله في باريس كثيرة ومتشعبة، رغم أن مصالحه كانت ستضار.. فلم لا يقوم نبيل عنه بهذه المهمة لقاء أجر؟!

ومن تحت المائدة غمزه حسن وهو يقول لچورچ: «تدفع كام؟!»

وفي لحظة وجد نبيل في يده مائة فرنك مصاريف البريد، وعنوانًا في الشانزليزيه ووعدا بالحساب يوم ينتهي المؤتمر، ويمر بباريس في طريق العودة إلى القاهرة وعندما همَّ نبيل بالحديث، ولا يدري أحد ما الذي كان ينوي أن يقوله، عاد حسن مرة أخرى فغمزه من تحت المائدة.. وزيادة في الاحتياط، قدم له چورچ رقم تليفونه، طالبًا منه الاتصال به كلما مر بباريس.. ثم ودعهما وانصرف..

في الليل، وأثناء العودة، كان نبيل يشعر بالسعادة، فلقد كسب مائة فرنك دون ارتباط، دون وعد.. وكان حسن يشجعه قائلًا: إن باريس شيء والقاهرة شيء آخر.. إنهم في أوروبا يعطون لكل جهد ثمنه، ولكل عمل أجره.. ولم يكن مطلوبًا من نبيل سوى شيء واحد، أن يرسل لچورچ على العنوان المذكور، أخبارًا من تلك التي تصدرها سكرتارية المؤتمر لتقدمها للصحفيين.. والتي كان يكتبها بيديه على الآلة الكاتبة لتطبع بعد ذلك على آلة الرونيو، فيوزع نصفها، ويلقي النصف الآخر في سلة المهملات!

■ ■ ■

في كوناكري لم يحدث شيء له قيمة، عقد المؤتمر ونجح، وكان نبيل طوال بقائه هناك، يكتب خطابات إلى چورچ، يضمنها تلك الأخبار التي تنشر في كل صحف العالم.. لم يكن صحفيًّا ليعلم أن مثل هذه الأخبار إذا ما أرسلت بالبريد إلى وكالة أنباء بالذات، تصبح شيئًا لا قيمة له، بل، إذا ما وصلت إلى وكالة الأنباء متأخرة دقيقة واحدة، أصبحت خبرًا محروقًا لا يساوي ثمن الحبر الذي كتب به!

في كوناكري لم يحدث شيء له قيمة، لم يخبر نبيل غير أنه عندما عاد إلى باريس، وكان هذا في فبراير عام 1960، كان أول ما فعله أن طلب رقم «چورچ» وظل جرس التليفون على الطرف الآخر يدق دون رد.. مرة ومرتين وثلاثًا، دون جدوى..

لحظتها تذكر نبيل شيئًا غريبًا..

لحظتها تذكر نبيل أن «حسن» لم يعطه عنوانًا له ولم يعطه رقم تليفونه، ولم يعطه اسم الكلية أو المستشفى التي يدرس فيها.. لحظتها تذكر نبيل أن «حسن» لم يكن سوى «حسن» ولا شيء آخر، واحد من أهل باريس.. فأين حسن؟!

ولقد مرت على نبيل لحظات صعبة، مريرة، كان تليفون «چورچ» - رغم كل المحاولات التي بذلها - لا يرد، لا شيء سوى جرس يدق ويدق ويدق بلا مجيب مرات ومرات وعشرات المرات دون جدوى.. وأخيرًا أخيرًا لم يجد أمامه سوى العنوان الذي كان يرسل عليه الخطابات، فبحث عنه، حتى وجده..

وكانت الصدمة مروعة..

كانت صدمة اهتز لها نبيل حتى الأعماق..

كان العنوان لشركة من شركات السياحة، لم يكن وكالة أنباء، ولم يكن منزلًا.. فتح الباب الزجاجي للشركة، وتقدم من الفتاة الشديدة الجمال الجالسة إلى المكتب الأنيق، تقدم إليها مترددًا، وهمس سائلًا عن: «مستر چورچ!».. فأجابت الفتاة أن لا أحد هنا يحمل اسم چورچ، حاول أن يفهمها أنه كان يرسل خطاباته من كوناكري إلى چورچ على هذا العنوان فتبدت الدهشة في عيني الفتاة، وعندما ألح، أطلقت عليه من عينيها الخضراوين نظرة، نظرة واحدة كانت كفيلة بأن تلقي به إلى الخارج!!

■ ■ ■

هكذا وجد نبيل نفسه ضائعًا تمامًا.. هكذا تبددت الأحلام التي حرص حرصه كله على ألَّا يذكرها حتى لنفسه، كانت الأحلام تبني قصورًا في الخيال... وأن يترك عمله كتايبست وأن يصبح صحفيًّا خطوة نحو الهدف، وأن يظل كاتبًا على الآلة الكاتبة ويأتيه دخل يساعده على الحياة وتربية إخوته، وأن يتفرغ للمذاكرة بعد الظهر بدل الانحناء على آلة كاتبة أخرى.. حلم طالما تمناه.. وأن.. وأن .. وأن

ولكن ها هي الأحلام تتبدد في مثل لمح البصر، وكأن كل شيء ما كان، كأن حسن ما كان، وكأن چورچ ما كان سوى أضغاث هلوسة كأس يشربها ذات ليلة في بار متواضع بحي الشانزليزيه.

■ ■ ■

عاد إلى الفندق محطم النفس تمامًا، يائسًا، مهمومًا، ضيق الصدر.. غير أنه ما كاد يستقر في غرفته، حتى استدعى لمكالمة تليفونية..

لأول وهلة أصابه الارتباك، وللوهلة الثانية تذكر «حسن»، وفي الوهلة الثالثة كان يقفز الطريق حتى التليفون، وما إن وضع السماعة على أذنه، حتى سرى في الأسلاك صوت «چورچ»، چورچ، چورچ نفسه.. بل الأكثر من ذلك أنه كان يعتذر، أن الفتاة لا تعرفه لأنها حديثة عهد بالمكان، چورچ، چورچ هو الذي يطلب لقاءه فلم يتردد.. وقبل، وانطلق لملاقاة المصير.. الأمل، الهاوية التي كانت تتفتح تحت قدميه وكان يسعى إليها!

يا للأحلام عندما تتلون بألوان الطيف السبعة فتحمل الإنسان على جناحيها إلى جنة موهوبة.. يا للثقة تعود فتسري في نفس الإنسان فتسكره بخمر أقوى من الخمر.. وإذا كان چورچ يجلس الآن أمامه، وجهًا لوجه، عينًا في عين، وإذا كان يناقش خطاباته وأخباره خطابًا خطابًا وخبرًا خبرًا.. إذا كان يثني عليه ويشكره.. فكيف يتعامل مع أناس لهم مثل هذا القدر من الشرف، قال هذا لنفسه عندما قال له چورچ إنه أخبر رئيس التحرير بأن نبيل هو صاحب الأخبار... وكيف يمكن للحظ أن يكون بهذا القدر من الكرم، وچورچ يخرج من جيبه ألف فرنك يعطيها لنبيل ثمن جهده.. وكيف، كيف يصدق أنه على موعد معه في اليوم التالي، أن هناك اتجاهًا في الوكالة لتعيينه صحفيًّا، وأن الأمر في يد مجلس الإدارة الذي سيجتمع في الغد ليقرر مصيره؟!

وكيف يأتيه النوم؟!.. كيف؟!

ليلة هذه أم حلم الأحلام يرسله القدر على طبق الأماني خالصًا.. كان إحساسه بالأشياء غريبًا ومثيرًا، وإذا ما وافق مجلس الإدارة فلسوف يدخل امتحانًا يضم رئيس التحرير وبعضًا من أعضاء المجلس، وليست مجالس الإدارة في أوروبا مثلها مثل هذه التي في مصر.. إن الموعد موعد، والاجتماع لا بد أن يتم كل يوم..

وفي الغد.. الغد الذي يأبى أن يأتي. سوف يعرف مصيره.. وأيًّا كان الأمر، ففي جيبه ألف فرنك حقيقة، اشترى منها، وأنفق بعضها. في بعض الأحيان يصبح الواقع أزهى من الأحلام.

أعطوه الأمل، ثم تركوه معلقًا..

رفعوه إلى قمة الأحلام، ثم تركوه يهوى بلا معين..

وفي لحظة اليأس العظمى، تمتد إليه اليد عبر سلك التليفون لتنتشله..

هنا تصبح الفريسة سهلة المنال، طرية اللحم بعد أن طهوها على نار القلق المدمر..

الغريب.. الغريب الغريب.. أن نبيل - أبدًا - لم يسأل عن «حسن»..

■ ■ ■

وهكذا جاءت البداية.. عندما التقى بچورچ في ذلك البار المتواضع، وزف إليه خبر موافقة مجلس الإدارة على تعيينه، ثم منحه خبرًا أعظم.. أنه على موعد مع رئيس التحرير في اليوم التالي، في بهو الفندق «چورچ الخامس».

ودق قلب نبيل.. وهتف: «چورچ الخامس»؟!

ورد چورچ ساخرًا: «وأين تريد أن تقابل رئيس التحرير؟!»

وقبل أن ينطق نبيل، كان چورچ يقوم بما كان يدور في خلده، وسرعان ما دفع الحساب، واصطحبه معه إلى أحد محلات الملابس، واشترى له بذلة وقميصًا ورباط عنق وجوارب و... وحتى ملابس داخلية.

وكان نبيل مستسلمًا تمامًا.. كانت الفريسة قد أصبحت طيعة ومطيعة.. ولم يكن هذا الذي يحدث مجرد تصرفات عفوية، لم يكن نبيل يعلم، أن كل حركة كل سكنة، كل خطوة خطاها ويخطوها كانت

توضع تحت مجهر أعين مدربة تدريبًا عاليًا.. ولم يكن يعلم، أن انهياره قد وصل إلى علمهم قبل أن يصل إلى علمه، ولم يكن يعلم أن استسلامه هذا، كان دليلًا قادهم إلى قلب قلبه، إلى نقطة ضعفه.

وهكذا وجد نفسه يخطو إلى «بهو» فندق «چورچ الخامس»، ورغم أنه كان قد تأنق بكل ما يملك من جهد وطاقة وملابس جديدة، إلا أن مظهره كان يبدو وسط الأضواء متواضعًا.. كانت قدماه تغوصان في أرض شديدة الليونة، سجاد كالحلم، جدران كالسراب، ثريات كالنجوم، أناس كالخيال، نساء كحوريات جنة يحلم بها الإنسان منذ أن كان.. ولكن، ها هو، ها هو بلحمه ودمه في فندق چورچ الخامس يقدمه چورچ لثلاثة: «مستر كنجز لي – ومستر ستانلي، ومستر... وضاع اسم الثالث وهو يرى الرجال الثلاثة وكل منهم يمسك سيجارًا يصل ثمنه إلى مرتب عشرة أيام.. وبدأ الحديث، وبدأت الأسئلة، وبدأ نبيل يجيب.. و... وكم مضى من الوقت، لا يدري، لا يدري سوى أن مستر «كنجز لي» قال له في النهاية:

– مبروك!..

ساعتها، كان نبيل يبكي من الفرح..

■ ■ ■

قبل أن ينفض الاجتماع. أصدر مستر «كنجز لي» أمره إلى مستر «ستانلي» بأن يتولى مسئولية نبيل.. هنا كانت قد انتهت مهمة «چورچ» كما انتهت من قبلها مهمة «حسن».. وأخرج ستانلي قلمًا وورقة وكتب

نبيل: «أقر أنا نبيل.. بأني قد تعاقدت مع مستر «ستانلي» للعمل في المجال الصحفي، وذلك تحت الاختبار لمدة عام كامل، وبمرتب شهري قدره خمسون دولارًا».

ووقَّع نبيل، وودع الرجال، وكان على موعد مع ستانلي في اليوم التالي..

من حسن الحظ - !!! - أن ستانلي كان يجيد العربية.. في اليوم التالي سأله ستانلي:

- انت نازل فين؟!...

وعندما عرف اسم الفندق، أبدى امتعاضه، إن الصحفي الذي يعمل معهم، لا بد أن يكون مظهره مناسبًا لمكانة الوكالة.. وانتقل نبيل - مبهورًا - إلى فندق فاخر - وفي غرفة هذا الفندق الفاخر، التي كانت معدة من قبل إعدادًا كاملًا، جلس ستانلي إلى نبيل..

- تعرف تصور؟!..

وارتبك نبيل...

- إزَّاي تبقى صحفي ولا تعرفش تصور؟!

وبدأ تدريبه على التصوير، بدأ يدربه على تصوير الأشخاص، ثم الأماكن، ثم الأشياء.. كان التدريب يتم خطوة بعد خطوة، وكان نبيل ينزلق خطوة بعد خطوة، وكان موعد السفر يقترب، والتدريب الشاق يأخذ أغلب ساعات اليوم، وكيف يثبت الكاميرا، وكيف يصور

المستندات، وكيف وكيف.. وكان نبيل يستوعب، تحول ذهنه إلى جمرة متقدة.. ولكن.. كان ثمة سؤال وجهه نبيل إلى «ستانلي»:

- ماذا عن الأخبار؟!

- ما لها؟!

- أبعثها في برقيات والا في جوابات؟!

وخجل ستانلي، كان نبيل ساذجًا دون شك، لم يكن يعرف أن البرقية من الممكن أن يقرأها أي من موظفي البرقيات، وأنها من الممكن أن تتسرب إلى الصحف وتصبح، قبل أن تصله إليهم، بلا قيمة..

- يبقى أبعثها في جوابات!!

ومرة أخرى يبرهن نبيل على سذاجته.. إن ما يحدث للبرقيات من الممكن أن يحدث للخطابات..

- طب العمل إيه؟!

وإذا كان الخبر الصحفي يصبح سرًّا للجريدة أو الوكالة أو المجلة، فإن للسرية وسائل سرية.. إن لها حبرًا سريًّا عليه أن يتدرب على الكتابة به!!

وتحمس نبيل، وتدرب، ليلة بعد ليلة، إن كل شيء يجب أن يظل على الكتمان.. حتى إذا جاءت الليلة الأخيرة، تسلم نبيل كاميرا «زينيت» كما تسلم كيسًا جلديًّا به جيب سري وضع فيه معدات الحبر السري.. و.. وقبل أن تمتد يده لمصافحة ستانلي جاءته المفاجأة..

لقد رفعوا أجره من خمسين دولارًا في الشهر، إلى مائة دولار كل شهر!

ولم يصدق نبيل أذنيه، ولكن.. كان عليه قبل أن يسافر، أن يفتح حسابًا سريًا في أحد بنوك جنيف، وكان عليه أن يعطي لستانلي رقم الحساب السري، ليضع له النقود فيه.. وكان آخر ما أخذه نبيل من ستانلي، هو العنوان الذي سيرسل عليه خطاباته.. وكان في الدانمارك!

■ ■ ■

كانت هذه هي البداية، ولا أحد يدري على وجه اليقين متى وضعت المخابرات المصرية يدها على أول الخيط، لا أحد يدري فهذا هو قمة السرية، غير أن الذي عرفه نبيل عن يقين أنه كان ساذجًا، وأنه لفرط سذاجته، تركوه ثلاثة عشر عامًا كاملة، وهو يرسل تقارير توضع باستمرار تحت يده، تدسها عليه المخابرات العامة المصرية بأسلوب دقيق لا يمكن كشفه.

كان الأمر يتطور يومًا بعد يوم، لم يعد المطلوب من نبيل أخبارًا صحفية، بل تحول، بعد أن قبض الكثير من المال، وبعد أن ارتفع أجره إلى 150 دولارًا في الشهر، إلى منظمة لمحاربة الشيوعية..

ولم يعد المطلوب منه أخبار السكرتارية فقط، بل أصبح المطلوب منه أن يعرف علاقات الأعضاء بعضهم ببعض، كيف يتعاملون، وكيف يتصرفون وماذا يكتبون، و... و.. والتحق نبيل بكلية التجارة بجامعة بيروت حتى يسهل عليه السفر، وسافر إلى بيروت، وطار منها إلى أثينا،

والتقى ستانلي الذي سلمه إلى بيتر.. ودربه بيتر على قراءة «الميكروفيلم» وهو هذا الفيلم الذي لا تتعدى مساحته رأس دبوس، ويوضع تحت ورقة البريد أو في ثنايا المظروف.. ثم طلب منه أن يتوسع، أن يجمع أخبارًا عن الجيش، والحالة الاقتصادية.. ويسأل نبيل ويأتيه الرد بأن هذه المعلومات مطلوبة لمنظمة حلف الأطلنطي، ويسافر إلى بيروت، ومنها إلى أثينا، ويلتقي ببيتر الذي يسلمه إلى شخص آخر هو «توني».. وكان «توني» مختلفًا، كان جدًّا متهجمًا: «سيبك من المؤتمر الإفريقي ما تبعتش عنه حاجة إلا إذا كانت مهمة جدًّا، عاوزين أخبار عن الجيش، عن العرب، عن اتجاهات الرأي العام».

وقبل أن يسأل نبيل، يقرر توني أن مرتبه ارتفع مرة ثالثة إلى 200 دولار في الشهر..

ثلاث سنوات قضاها نبيل مع توني، ثلاث سنوات كان يسافر فيها للدراسة أو للسياحة أو مع المؤتمر الإفريقي الآسيوي ليلتقي بتوني.. تمامًا، كما حدث في رحلته إلى الهند عندما التقى به توني في نيودلهي ليعطيه المزيد من المعلومات وكان هذا في عام 1970، ثم رحلته في عام 1972، عندما خطا خطوته الأخيرة، وأصبح جاسوسًا مدربًا على التقاط الرسائل اللاسلكية وإرسالها في نفس الوقت.. وتعلم نبيل الشفرة، كان كتاب الشفرة إحدى روايات «أجاثا كريستي»... كان نبيل ينجح في علاقته بهم، وينجح في دراسته، ويفشل في حياته، خطوة بعد خطوة، وبلغ رقم ما تقاضاه منهم 35 ألف دولار، كان خاطبًا لفتاة تركها، وأصبح خاطبًا لفتاة أخرى فشلت علاقته بها، وانهالت عليه

المكافآت.. كانت المعلومات المدسوسة عليه دقيقة إلى حد أن خدعت مخابرات إسرائيل.. وكان - في أحد لقاءاته مع توني - يتحدث عن المنظمة التي يعمل لحسابها عندما سأله «توني» بجفاء:

- منظمة إيه؟!

وقال نبيل:

- منظمة حلف الأطلنطي!

فرد عليه ستانلي:

- نبيل.. انت عارف إنك بتشتغل مع إسرائيل، اللف والدوران مالوش لزمه!

و... لم ينطق نبيل!

■ ■ ■

في يوم 14 نوفمبر عام 1973 قبض على نبيل، واعترف.. صرح مسئول في المخابرات المصرية: «بأنه كان تحت السيطرة الكاملة لمدة عشر سنوات!».

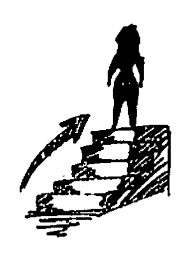
وعندما علمت خطيبته الثانية بالأمر قالت:

- لو كانت دي قضية عادية، ما كانش ممكن أسيبه لكن... لكن دي خيانة..

ثم نزعت الدبلة..

الصعـود إلى الهـاويـة





الصعود إلى الهاوية

«هذه قصة هزتني لشهور طويلة، وأقضتني ليالٍ عديدة، كل ما أبغي قوله عنها، أنها لا تحوي شيئًا من الحقيقة، كما أنها لا تحوي شيئًا من الخيال!..»

الألم والعذاب واللون الأسود يلون كل شيء في الدنيا، طار «رمزي» دون سابق إنذار.. يوم تقدم إلى خطبتها أحست وكأن القدر يعطيها كل ما تريد، شباب ومال وجمال، هكذا كانت تردد أمها دائمًا عنه.. رآها ذات يوم لا تدري أين، لكنه تذكر يوم رأته لأول مرة، كان أنيقًا بلا إسفاف، وكان رقيقًا رقة رجل يعرف كيف يعامل امرأة طلبها للرقص فلبت وقد كست وجهها حمرة سعادة بلا حدود.. على أنغام الموسيقى كانت ترقص معه فوق أرض صنعت من سحاب، زرقة السماء في عينيه ولون الذهب في خصلة شعره النافرة إلى جبهة توحي بذكاء وقَّاد.. قبل أن تحتويها ذراعاه كانت تعرف من هو رمزي السيد، رجل أعمال في الثلاثين من العمر يقضي نصف حياته متنقلًا بين بلدان العالم، والنصف الثاني في إدارة مكتبه الأنيق للاستيراد والتصدير، طلب منها موعدًا

فلم تستطع الرفض، أعطته رقم تليفون البيت، وأعطاها كارتًا به أربعة أرقام، وكَتب لها الرقم الخامس السري، حيث تستطيع أن تجده دائمًا.. وليلتها، ليلتها احتضنت وسادتها وغابت مع الأحلام..

عندما تقدم لخطبتها صاحت فيها أمها:

- وده عترتي عليه فين يا عبلة؟!

عبلة كامل..

هذا هو اسمها الذي إذا تردد في كلية الآداب اقترن بالنبوغ والعبقرية..

عبلة كامل...

لا تدري من أين جاءها هذا الذي يتحدثون عنه من اتِّقاد الذهن وحضور البديهة. طالما جلست إلى نفسها وتساءلت: من أين؟... وإلى أين؟.. سر الأسرار أم قدس الأقداس أم حرم الشيطان كان يسكن في عقلها يوم وضعت الدبلة في إصبعها ابتسمت سلوى، صديقة العمر ورفيقة الصبا ومدارج الطفولة.. وقالت:

- ربنا يسعدك يا عبلة.. ربنا يسعدك!

كان في الصوت رنة حسد أم كانت نغمة إشفاق هي! لا تدري، ولم تكن تريد أن تدري.. كل ما تعرفه أنها كانت تنتظر دقة التليفون وصوته يدعوها للقاء، كانت ترتمي في أحضانه فتستعيض بشفتيه عن الدنيا وما فيها، وبجواره في السيارة حيث الراديو والريكورد والبيك

أب والتكييف صيفًا وشتاءً، عرفت كيف تستمع إلى الأغاني لأول مرة، تذوقت طعم «أم كلثوم» و«عبد الوهاب» ورأت وجه الدنيا الجميل في ابتسامته.. وتجري الأيام، تجري تجري تجري، وكانت تجري معها دون أن تلهث، حتى كان هذا اليوم.. حتى كان؟!

راحا يضحكان في السيارة من أعماق قلبيهما.. كان يردد أسماء المحال في القاهرة محلًّا محلًّا، كانا يريدان شيئًا جديدًا؛ فإذا بهما وطئا كل مكان وذهبا إلى كل مكان.. انحرفت السيارة وراحت تجري على كورنيش النيل فلم تسأله إلى أين، وقفت أمام عمارته وكانت تعرف أنه هنا يسكن، نظرت إليه فأطلت عليها ابتسامته كالحلم.. فتحت باب السيارة وراحت تتقافز بجواره إلى حيث المصعد، وفي المصعد احتواها هذا الدفء الذي يسري في العظام فينحدر العمر بما فيه.. وعندما خطت خطوتها الأولى إلى داخل المسكن الأنيق، دار رأسها.. دار.. دار، دار قبل الموسيقى والكأس وأحلى رقصات العمر منذ المهد حتى اللحد..

نظرت إليه قبل أن يغادر البيت..

- ما لك يا عبلة؟

- رمزي.. مش عارفه، وبعدين؟!

- فيه إيه يا عبلة؟!

- رمزي احضنِّي!

وضمها إليه، احتواها بين ذراعيه، لم تكن خائفة.. أبدًا هي لم تخف مما حدث.. في أذنها انسالت كلماته كالنسيم العطر:

- هو الجواز ورقة يا عبلة.. ما احنا متجوزين؟!

كانت تعلم يقينًا هذا، كانت تعلم أنه على حق وكانت تؤمن بما يقول ولم تكن تشك لحظة، لحظة واحدة فيه، كانت هي اختياره، كما كان هو اختيارها فمن أين يأتي الغدر أو الخيانة؟

وفي السيارة كانت الدنيا قد عادت كما كانت، ملونة نعم، لكن لألوانها طعم الحقيقة، ساد بينهما الصمت فلا كلمة، ضغط على زر فانبعثت الموسيقى تسري في جو السيارة الدافئ.. أحسَّت بنظراته تقبل وجنتها فارتجفت.. همس:

- ما لك يا عبلة؟!

نظرت إليه وتداخلت في نفسها وأسندت رأسها إلى المقعد وقالت:

- عارف يا رمزي ساعة ما ركبت العربية حسيت بإيه!

وانتظر أن يسمع دون أن يسأل:

- حسيت إني مراتك!

وضحك رمزي السيد، وضحك وهو يضغط يدها في كفه:

- ما انتي مراتي يا عبلة.. انتي مراتي!

■ ■ ■

قبل أن تضغط جرس الباب جاءها صراخهما من الداخل:

- يا شيخة ربنا ياخدك ويريحني منك!

- وما ياخدكش انت ليه يا كامل؟

- يا وليه اهدي.. اتقي الله في عيشتك؟

- وهيه دي عيشة يابو التسعين ملطوش!

- يا أم عبلة اعقلي وخلي الليلة تعدي على خير!

- ومن إمتى شفت الخير معاك يا كامل؟!

- أهو أنا كده.. إذا كان عاجبك!

- لا مش عاجبني!

- أهو عندك الباب يفوت جمل!

وجاءتها ضحكة أمها مجلجلة، رنانة، خالية، مستفزة..

- طب شد حيلك لو كنت راجل!

- كده يا أم عبلة.. كده.. طب روحي وانتي.. وضغطت عبلة على جرس الباب بكل ما تملك من قوة.. انقطع يمين الطلاق فلم يتم، وفتح أبوها لها الباب فأطلت عليهما بتحية المساء. كانت سعيدة. وكانت تعلم أن هذا «الموال» موسيقى مزعجة تعزف في البيت ليل نهار.. تحبهما نعم، وكيف لا يحب الإنسان أباه وأمه، مختلفان نعم، ومنذ أن وعت وكل منهما في وادٍ غير وادي الآخر.. حسم وجودها الأمر وكان المشهد كما توقعت، أمها تجلس وفي يدها أوراق اللعب وهي «تفتح الكوتشينة» لتستشف المستقبل وهو بجلبابه وطاقيته وسجادة الصلاة يفردها هربًا من المعركة.. مكبرًا للصلاة متمتمًا بآيات من القرآن..

ما الذي أصابها في تلك الليلة؟!.. لا تدري.

غير أنها أرادت أن تقول.. أرادت أن تحدث أحدًا، أن تخبر أمها بالذات بما وقع. ليس عدم ثقة في رمزي ولكن رغبة في المشاركة بالفرحة.

نعم.. كانت فرحة. كانت كعروس ليلة زفافها تريد أن تشهد العالم كله أن رجلها أصبح لها وأنها أصبحت له. اقتربت من أمها وقبّلتها وقبّلتها فلم تنطق الأم.. همست:

- ماما..

زامت الأم وقد استغرقتها الأوراق والأرقام والصور.

- ماما..

التفتت فجأة وصرخت:

- عاوزه إيه من زفته.. ابعدي عني وكفاية عمايل أبوكي فيّه!

ولقد كان شيئًا عاديًا هذا الذي حدث، شيء تعودته، وكانت تحكي لرمزي عنه، وأحيانًا كانت تضحك منه.. غير أنها الليلة.. الليلة بالذات، شعرت وكأن أمها تصفعها ليلة الفرح!

- ماما.. أنا عاوزه أتكلم معاكي!

- سيبيني في حالي... عندك أبوكي روحي له!

ونهضت مبتعدة، جرح هو أم قبح كان مخزونًا في القلب.. أنهى أبوها صلاته مبسملًا ومحوقلًا فانزلقت لتركع بجواره على الأرض هامسة:

- بابا..

- سيبيني في اللي أنا فيه يا عبلة.. كفاياني عمايل أمك وقرفها!

وعلى الفور جاءته من حيث كانت أمها قذيفة، رد عليها بأخرى.. واشتعل البيت بالنار وهي واقفة ترقب... نادت على الأم فلم ترد، نادت على الأب فلم يرد، صرخت فيهما فازداد صراخهما. ماما. بابا. بابا. ولكن كانت الحرب بينهما تدمر فيها كل شيء، كل شيء..

في اليوم التالي أدارت قرص التليفون:

- رمزي بك من فضلك!

- رمزي بك مسافر يامدموازيل!

نزل الخبر على رأسها كالمطرقة، عنيفًا رهيبًا، مدمرًا، وجاءها الصوت من الطرف الآخر:

- الو.. الو.. الو..

- سافر؟!.. سافر إمتى؟!..

- سافر أوروبا!

وعندما وضعت السماعة في مكانها، لم تكن الدنيا تدور، أبدًا.. ولم تصعد الدموع إلى عينيها، أبدًا فقط. طوفان رهيب من الكراهية راح يتدفق في أعماقها. كيف. كيف. كيف. ولا جواب.

وهكذا جاءتها الكراهية بما لم تحلم به أبدًا.

وهكذا في لحظة واحدة انتقلت من عالم إلى عالم.. ومن دنيا إلى دنيا..

وهكذا ازداد تفوقها وازداد نبوغها وازداد إعجاب الناس بها، كما ازداد عدد الذين أحبوها!!

في فناء الجامعة جذبتها سلوى من يدها مبتعدة عن الشلة الضاحكة:

- عبلة .. إنتي اتجننتي؟!

- ليه بس يا سلوى؟!

- إيه اللي انتي بتعمليه ده؟!

ولم تكن ترى فيما كانت تفعله جريمة، ثلاثة من زملائها وقعوا في غرامها فما ذنبها.. ومنذ عام وبعض عام كان رمزي قد اختفى، لم تتصل به ولم تفكر ولم تحاول غير أنه لم يتصل بها.. خلعت الدبلة ولم تجد من تسر إليه بما حدث سوى سلوى.. ارتاعت سلوى وبكت وقضت أيامًا حزينة.. غير أن عبلة لم تحزن أبدًا، ولم تبك أبدًا، بل انطلقت لتدمر كل شيء، كل شيء. ولم يكن ما حدث بين «العيال» في الكلية يعني عبلة أو يشغلها.. كان ما يعنيها وما يشغلها حقًا هو «البروفيسور بيير»..

كان أستاذًا للغة الفرنسية لكنه كان يتقن العربية.. كان شابًا وكان وسيمًا، لكنه كان عالمًا بكل ما تحمل الكلمة من معنى.. كان صديقًا للجميع غير أنه كان صديقًا لعبلة بنوع خاص.. ذات يوم قال لها:

- إنت زي الصاروخ يا عبلة.. بس عيبك إنك مش موجهة!

في علاقته بها كان نوع من الحذر لم تعرف سببه.. ردت على صياح سلوى وغضبها قائلة:

- إيه اللي مخوفك من بيير، ده عمره ما غازلني، وعمره ما قال لي كلمة خارجة، وعمره ما اتصرف معايا تصرف غير لائق، وعمره ما...

- البروفيسور بيير بيحبك يا عبلة!

- لا!..

قالتها بحزم شديد، قالتها بثقة شديدة، ليس حبًا هذا الذي يكنه لها بيير، أبدًا ليس حبًا، إنه شيء آخر، شيء غامض لا تدريه. قالت لسلوى هذا كما قالته لنفسها، لم تعد تفكر منذ ذلك اليوم أن تتحدث إلى أمها أو أبيها... ولم تعد تفكر منذ أن أخبرت سلوى بما فعله رمزي أن تطلعها على شيء، فما الذي كان هناك، في أعماقها؟!

- بروفيسور بيير.. أنا عاوزه أسألك سؤال.. لكن؟!

- أنا هنا علشان أجاوب على أسئلتك يا عبلة!

- إنت بتحبني؟!

- لا.

بثقة قالها.. بهدوء نطق بها.. فتركته ومضت وهي واثقة من أنه كان صادقًا.. شيء غريب هذا الذي كان يربطها به، شيء غريب ومخيف

ومروع، غير أنه كان مثل القدر، يسعى إليها حثيثًا، دون أن تستطيع دفعه.

- الفلوس مش كل حاجة يا عبلة.. إنتي مجنونة!

- لو كان بابا غني ما كنش رمزي عمل كده!

- رمزي عمل اللي عمله لأنه ندل!

- رمزي عمل اللي عمله يا سلوى لأني فقيرة.. لأني معنديش فلوس..

إنت مصدقة نفسك.

- أنا مقتنعة باللي أنا بقوله!..

ويوم ظهرت نتيجة الليسانس كانت ناجحة، وكان هذا اليوم هو موعد زواج سلوى من عزت!

- تفتكري لو إن باباكي مكانش له المركز ده، وما كنشي عنده الفلوس دي، كان عزت خطبك؟!

- عبلة.. إنتي اتجننتي.. عزت بيحبني، وأنا بحبه!

- تفتكري لو ما كانشي باباكي غني وفي المركز ده كان عزت وقع في غرامك!

- عبلة.. اخص عليكي!

- ما تزعليش مني يا سلوى.. إنت عارفه.. أنا صريحة، وهي دي الحقيقة!

وقبل هذا اليوم بأسابيع طويلة، كانت تحيا أزمة الفستان..

- ماما.. أنا لازم أحضر فرح سلوى، وأنا ما عنديش فستان!

- وأنا أجيب لك منين.. عندك أبوكي!

وذهبت إلى أبيها..

- بابا..

لكنها لم تكمل.. فلقد انفجر فيها هادرًا شاكيًا أمها فمضت.. ويومها لمح البروفيسور بيير في عينيها ذلك الحزن الذي ينبئ عن عجز.. قال:

- ما لك يا عبلة؟!

- زعلانه.

- ليه؟!

- علشان فستان!!

كان بيير رغم كل شيء، قد أصبح صديقًا لها.. كانت تجلس إليه بالساعات لتناقشه ويناقشها، لتحكي.. كان بيير بارعًا في جر قدمها لأن تقول كل شيء.. ذات يوم سألته:

- بروفيسور بيير.. إنت بقيت عارف عني كل حاجة!

وابتسم بيير ولم يرد.. غير أنه في ذلك اليوم الذي حدثته فيه عن الفستان قال:

- أنا حاجيب لك فستان هدية!..

- مش حا أقبلها؟!

قالتها في تحدي الواثق من نفسه!

- من عند بيير كاردان في باريس!

برضه مش حا أقبلها..

لكنه.. قبل الزفاف بيومين، همس في أذنها قائلًا:

- عبلة.. الفستان وصل!

وكانت هذه هي المرة الأولى التي تُهزم فيها عبلة كامل.. كانت هذه هي المرة الأولى!

■ ■ ■

عندما خطت عبلة إلى بيت البروفيسور بيير، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بالليل.. تركت سلوى والجامعة وضحكات الناجحين وتهاني العيال للعيال واصطحبته لترى الفستان.. في التاكسي قالت:

- أنا حاعتبره سلف ودين لحد ما اشتغل!

فابتسم بيير ولم يرد..

لكنها عندما فتحت الصندوق ورأت الفستان، وعندما شهقت للشيء المبهر الذي انفرد بين يديها.. كان لابتسامة بيير طعم آخر.. غريب، مثير، غامض.. وقبل أن تخرج من شفتيها كلمة شكر، كان يقدم لها طاقمًا كاملًا للماكياج.. حاولت أن تنطق فلم تستطع، حاولت أن تشكره فأبت الكلمات، التفتت إليه وسألت:

- بروفيسور بيير.. إنت بتحبني؟!

ولم يرد هذه المرة، كل ما فعله أنه ضحك ضحكة خفيفة.. ثم غادر الغرفة لترتدي الفستان!!

كان حفل الزفاف مقصورًا على الأصدقاء والصديقات والأقارب.. وعندما دق جرس الفيلا الأنيقة وفتح الباب، التوت كل الرءوس نحو الضيف القادم.. وكانت عبلة تعلم علم اليقين ما الذي أصاب الجميع.. الجميع.. كانت في هذا اليوم جميلة.. لا.. لم تكن جميلة.. كانت شيئًا خارقًا للعادة.. وعندما وقفت أمام المرآة قبل أن تغادر بيت البروفيسور بيير كان هذا يقف وراءها، وكان يقول:

- أنا خايف على العروسة منك!

لكنها - أبدًا - لم تكن تفكر في هذا.. كانت تنظر إلى نفسها في انبهار... ها هو يقينها يتحقق، ها هي تبدو مثل آلهة من آلهات الإغريق في فستان باهر، ولولا المال، لما وصلت إلى هذا، ولما أصبحت هكذا، ولما التوت كل الأعناق في فيلا محمد بك إسماعيل والد سلوى ورئيس مجلس إدارة إحدى الشركات الكبرى، لتشاهد هذه الفتاة التي كانت ترفل في ثوب لم تره عين.

وعندما ضمتها سلوى إلى صدرها، كانت عيناها جاحظتين وهي تشاهد الفستان هامسةً:

- جبتي الفستان ده منين يا بت؟!

وهمست عبلة:

- دي هدية البروفيسور بيير في جوازك!

لحظتها.. لحظتها بالذات.. تقدم منها صبري ضاحكًا:

- سلوى.. مش.. تقدميني.. أنا صبري.. صبري عبد المنعم.. ابن خالة سلوى!

ولم تكن عبلة كامل، تعرف في ذلك الوقت، أن القدر قد ربطها بصبري إلى الأبد..

ولم تكن تعلم.. أن الخيوط كانت - الآن - تنسج غير بعيدة عنها، وفي قلب القاهرة..

كان من عادة البروفيسور بيير - إذا ما شرع في العمل ليلًا - أن يغلق الأبواب والنوافذ وأن يسدل الستار تمامًا..

وعندما دلف إلى غرفة مكتبه، وأغلق الباب، وضغط على هذا الزر الخفي في مكتبة الحائط.. وعندما تحرك ذلك الجزء الصغير في قلب المكتبة ليكشف عن معداته من الحبر السري وأدوات التصوير وجهاز الإرسال، كان لا يزال يفكر فيما قالته عبلة كامل..

امتدت يده فأخرجت الحبر السري وأدوات الكتابة.. وشرع في الإعداد لكتابة الخطاب، فتح كتاب الشفرة وراح ينتقي الكلمات.. لكنه توقف - على غير عادته.

- وسرح بخياله..

وإذا كان من الصعب على مَن كان مثله أن ينفعل في مناقشة مع إنسان وضع عينه عليه، فإنه في تلك الليلة لم يستطع.. كان إعجابه بعبلة يزداد يومًا بعد يوم، ثمة شيء في أعماقها يدفعها إلى الكراهية والاحتقار، شيء لم يكن يدر به وإن كان يعلم يقينًا أنه موجود.. وكان إذا ما انفعل تحدث بالفرنسية حتى تسعفه لغته، ولقد ضحكت عبلة، وخاضت معه في المناقشة بالفرنسية التي كانت تجيدها، لترسم له الطريق واضحًا.

- ماذا تريد أن تقول يا بروفسور؟!

- أريد أن أقول يا صديقتي إنك تظنين أشياء لا ظل لها في الحقيقة!

- فما الذي تريد أن تعرفه؟!

- ما الذي تريدينه أنت؟!

- إنني أبحث عن القوة!

- إن القوة لن تجديها إلا في العلم، ففي العلم تكمن القوة الحقيقية!!

- وفي المال يا صديقي تكمن القوة الفعلية!

- إن الحصول على المال سهل يسير، فَلِمَ إذن تجهدين نفسك في العلم؟!

- لأني أريد أن أحصل على أكبر قدر من المال، ولن يتأتى هذا إلا بالعلم!

- إلى هذا الحد..

لكنها قاطعته في صراحة:

- إلى الحد.. وإلى كل واحد.. لقد هزمته مرة، ولن أسمح بالهزيمة مرة أخرى!

- أتظنين أن سلوى أسعد منك حالًا؟!

- يكفيها أنها ستتزوج الليلة دبلوماسيًا، وأنها ستسافر إلى جنيف معه في الصباح الباكر، وأنها ستشاهد أوروبا. وستتاح لها الفرصة لأن تعرف وترى وتتعلم!

- هل ترغبين في السفر!

- قالت بالعربية وهي تضحك:

- إيدي على كتفك!

ولم يجد بيير ما يكتبه بالشفرة - سوى هذا الحوار.. ضبط الأوراق، وجهز نفسه، وأضاء أباجورة المكتب وشرع في العمل بهدوء ودأب!

لكنه قبل أن يخط كلمة واحدة نظر في الساعة.. وكانت أمامه فسحة كافية من الوقت.

■ ■ ■

ضحكت سلوى وهي تهمس في أذن عبلة:

- صبري حا يتجنن عليكي!

- وأنا مالي!

كانت عبلة - الليلة - قد وصلت إلى ذروة الإحساس بالثقة.. وها هو كل شيء الآن بين يديها، تدعمت ثقتها بنفسها ساعة أن ظهرت النتيجة، الآن تستطيع أن تقول إنها جاهزة لكبح جماح العلم.. كما أنها الليلة تستطيع أن تقول إنها قادرة على هزيمة رمزي!!

- رمزي؟!

ما الذي ذكرها به؟!

يا بت يا عبيطة، صبري ده مدير عام، وعمره 32 سنة، ومهندس، وعبقري، وشغله مهم جدًّا!!

- وأنا مالي!

- يا عبيطة... دي البنات حاتموت عليه!

- من عبطهم!

- وهو حايموت عليكي!

- من عبطه!

- ده وارث!

- يبل فلوسه ويشرب ميتها!

- عينه ما بتنزلش عنك!

- يجيب لها سُلَّم وينزلها!

- كلمني عنك من شوية..

وابتسمت عبلة.. كانت تعرف الآن أنها قادرة.. كل الأشياء القديمة الآن أصبحت صغيرة.. كل الآلام أصبحت وكأنها لم تكن... حتى عندما سأل أبوها عنها بالتليفون، ردت عليه في لا مبالاة.. كان قلقًا لظهور النتيجة، فسخرت من قلقه وهي تزف إليه نبأ النجاح.. سألها لِمَ لَم تعد إلى البيت طوال اليوم، فتدفق من أعماقها حنين غامض إليه.. وقتها، أحست فقط أنها تحبه.. تحبه لأنه مسكين!

■ ■ ■

أمام فندق شبرد القائم على شاطئ النيل بالقاهرة، توقفت سيارة تاكسي، وهبط منها البروفيسور بيير.. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة بدقيقتين، دلف إلى داخل الفندق، فاحتواه هواء الهول الدافئ... انثنى إلى اليمين وسار خطوات حتى وصل إلى الهول، تطلع إلى الجالسين والجالسات وكان المكان شبه خالٍ.. بنظرة سريعة خبيرة احتوى المكان كله فاطمأن واستدار عائدًا من حيث أتى.. كانت وجهته تلك المكتبة الصغيرة القائمة على يسار المدخل.. تطلع إلى بعض الكتب حتى رآه قادمًا، لشهور طويلة وهو يلتقي به لكنه - أبدًا - لم ير وجهه كما ينبغي.. استدار ووقف أمام الحامل الدائري الذي يحمل مجموعة «الكارت بوستال»، اقترب من الحامل وراح يتطلع إلى الصور في إمعان.. امتدت يده إلى جيب معطفه الداخلي وأخرج الخطاب وفي لمح البصر كان قد دسه بين الكروت.. وكان «هو» يقف في الناحية الأخرى، فدفع بيير بالحامل فدار الخطاب ليقف عند الناحية الأخرى، وامتدت يد

لتأخذ الخطاب وتدسه في الجيب الداخلي للمعطف الرمادي.. ومضى الرجل.. وظل بيير للحظات حتى انتقى كارتًا، دفع ثمنه، وخط عليه بضعة أسطر، وكتب العنوان وابتاع من عاملة المكتبة طابع بريد، ثم ترك لها الكارت، كما تعوَّد أن يفعل. بعد أربعة أيام بالضبط، كان هناك اجتماع صغير عقد في «الموساد» المخابرات العامة الإسرائيلية وكان «أيزاك» ضابط المخابرات الإسرائيلي الذي يحمل هذا الاسم بجانب اسمه الحقيقي، يستمع إلى كل المعلومات التي وصلت إليهم من فتاة تدعي «عبلة كامل».. وكان المطلوب شيئًا هينًا بسيطًا، زيارة للسوربون مدتها أسبوعان، وتذكرة طائرة تمر بجنيف.

فغرت عبلة فاها دهشة، ابتسمت، كادت تصفق مرحًا...

- بروفيسور بيير.. إنت بتتكلم جد؟!

- تقدري تلقي التذاكر والمواعيد في مكتب الملحق الثقافي!

في ذلك اليوم بلغ انفعال عبلة أقصاه.. فمالت على وجنته وقبلته.. كانت الجامعة خالية من الطلبة والأساتذة.. لكنها غادرت مكتبه مهرولة، وما إن غادرت سور الجامعة العتيد، وراحت تبحث بعينيها عن تاكسي وهي تحسب ما في حقيبتها من مال.. حتى وجدت صبري أمامها..

دون تفكير.. فتحت باب السيارة، وصاحت في مرح:

- صبري.. اطلع بي على الزمالك.. قوام، ما قدميش غير ساعة إلا ربع!

وكان المهندس صبري عبد المنعم، في غاية السعادة، وهو يقود سيارته عبر شوارع القاهرة في طريقه إلى الزمالك، وكانت عبلة بجواره!

يحبها؟!

نعم يحبها؟!

سؤال وجواب ولا شيء آخر سوى قدر غامض يجذب إليها القلب والنفس والوجدان جميعًا. كان عاتيًا فلم يخفق قلبه لفتاة أبدًا.. الحب كلمة طالما سخر منها لكنه الآن غارقٌ فيها لشوشته، اسمها عبلة كامل وها هي تركب بجواره وليس فيها من الجمال الصارخ شيء غير أن في عينيها نظرة آمرة، عندما طاردها لم تمانع وعندما حاول اقتحامها صدته بقوة لا تعرف اللين أو الهزيمة.. في البداية كان الأمر عنادًا ثم تحول إلى شيء آخر لا يدريه في نفسه، ضحك منه محمود صديقه وقال: إن هزيمته أمام الجنس الآخر تحققت أخيرًا، فهل يرضخ.. هل يعرض عليها الزواج؟!

التفت إليها وهو يقود السيارة عبر شارع هادئ ظليل من شوارع الزمالك:

- عبلة... تتجوزيني؟!

- ليه؟!

قالتها ببساطة من سمع من إنسان تحية الصباح، ارتجف من رأسه حتى أخمص قدميه ووقفت السيارة أمام السفارة فغادرتها عبلة تقفز كالعصفور:

حاتستناني؟!

- أكيد!

مضت واختفت وأشعل سيجارة واستغرق في التفكير..

رفضته.. لا. لم ترفضه. بل رفضته. بل هي لم ترفضه.. كالبندول كان يرتجف هنا وهناك، لا يدري كم غابت من الوقت لكنها عادت وكانت في قمة السعادة.

قبل السفر بيوم كانا يجلسان معًا في أحد الكازينوهات المتناثرة على شاطئ النيل، كان الغروب بلون الدنيا بشفق رقيق، وكان هو يحكي عن نفسه، وكانت هي لا تحكي شيئًا.. حتى إذا حان موعد الانصراف همس:

- عبلة.. أنا أحبك!

- تبقى عبيط!

- يا عبلة أنا أحبك فعلًا... بحبك وعاوز أتجوزك ومش قادر أعيش من غيرك!

وجاءته الإجابة ضحكة ساخرة رقيقة:

لا.. حاتقدر تعيش من غيري!

وفي اليوم التالي كان على موعد معها لكي يوصلها إلى المطار.. وفي الصباح اعتذر بالتليفون عن عمله.. وظل يعد الدقائق حتى حان

الموعد. وعندما دق جرس التليفون في الطرف الآخر رفعت السماعة وجاءه صوت أمها:

- مين اللي عاوزها؟!

- أنا.. صبري عبد المنعم.. ابن خالة سلوى.

دي سافرت من ساعتين ياباشمهندس!

- سافرت؟!

صرخها ولم يقلها.. صرخها بلوعة مَن أصيبت كرامته في صميم الصميم... في ذلك اليوم، أحس وكأن أحدًا ألقى به من فوق قمة جبل، فظل جسده يتدحرج، حتى وصل إلى هاوية بلا قرار!

■ ■ ■

ابتسم أيزاك وهو يرقب وجه البروفيسور أرموند أستاذ اللغة الفرنسية بالسوربون.. كان أرموند كلما انفعل تقلصت عضلات وجهه وتراقصت نظارته أمام عينيه فبدا منظره مضحكًا.. كان أيزاك - الآن - يعرف طريقه جيدًا فراح يداعب البروفيسور أرموند وهو يلف ويدور حول الموضوع:

- مسيو أيزاك.. هل لك أن تخبرني بما أتيت من أجله اليوم؟!

- نحن عادة يا بروفيسور لا نأتي إلا للخير!

قال أرموند وقد ازداد تلاعب نظارته فوق أنفه:

«استمع إلي ياسيدي.. في بادئ الأمر، عندما جئتم إلي لكي تهددوني بالتعامل مع النازي.. كنت أرتجف هلعًا، لا لخوفي مما يمكن أن تفعلوه بي، ولا لخوفي من تلامذتي إذا دقت من حول اسمي طبول معاداة السامية.. ولكن لأني بالفعل لم أتعاون مع النازي، لقد كنت أيامها شابًّا ممتلئًا حماسًا.. وكنت هنا في السوربون غارقًا لأذني في مصطلحات اللغة وأدبها.. وإذا بكم تهددون وتتوعدون.. لا.. لا تقاطعني بالله عليك فما عدت أحتمل... ولقد رضخت لطلباتكم وأغلب الظن أني سوف أرضخ إلى ما لا نهاية.. غير أن ما يضنيني حقًّا هو ذلك الأسلوب الذي تتبعونه معي.. لماذا اللف والدوران؟! لِم لا تقول ما عندك وتريحني من العذاب؟!

- عبلة كامل!!

نطق أيزاك الاسم فساد الصمت وسيطر على الغرفة العتيقة في المبنى العتيق.. ترددت أنفاس البروفيسور أرموند بصوت مسموع وبدا أنه لا يسمع بهذا الاسم من قبل..

- مَن هي عبلة كامل؟!

- فتاة مصرية حصلت على زيارة للسوربون لمدة أسبوعين!

- وماذا تريد لها؟!!

- أن تمنح بعثة دراسية لمدة أربع سنوات!

هز البروفيسور أرموند رأسه موافقًا.. بدا وكأنه قد فقد الحيلة ولم يعد قادرًا على المقاومة... هؤلاء الإسرائيليون الذين يعيشون في الأرض

تحكمًا وجبروتًا. الذين يملكون من القول ما لا يستطيع مقاومته ليس غريبًا أن يطلبوا شيئًا لفتاة مصرية لكن الغريب هو تلك الابتسامة المطمئنة التي ترتسم على شفتي أيزاك.. مضى الإسرائيلي مختفيًا وتركه وحده، أحس بالحاجة إلى هواء منعش فجمع أوراقه وغادر غرفته وكان في طريقه إلى السينما.. هناك، على شاطئ النهر، يستطيع أن يجلس، وأن يفكر، وأن يبث ما في صدره إلى مياهه الجارية!

■ ■ ■

هبطت عبلة مطار جنيف وقلبها يرقص طربًا.. ها هي أوروبا أخيرًا. تلك القمة التي طالما أودت مخيلتها من خلال الكتب والسطور وكما كان الحلم كان الواقع، كل شيء كان يجري في مجراه دون عقبات. ارتمت بين ذراعي سلوى ودمعت عيناها، صافحت عزت بمرارة لم تعهدها في نفسها من قبل، كانا في انتظارها وكانت تعلم أنهما سيكونان هناك دائمًا..

- سلوى.. لو قلت لك إنك وحشتيني تصدقيني؟!

- ولو قلت لك إني عيانة بيكي تصدقيني؟

وضحك عزت وهو يقود السيارة التي تحمل أرقامًا دبلوماسية، الشوارع والبيوت والنظافة والنظام وكأن الدنيا تحولت إلى الجنة ثرثر عزت وكان يبدو سعيدًا وأعلن غيرته فلا حديث لسلوى إلا عن عبلة، ولا خناقة إلا حول عبلة.. حتى صاحت سلوى:

- لكن قولي لي يابت انتي.. إزَّاي جيبتي الزيارة دي للسوربون؟

- البروفيسور بيير!

- أنا قلت كده برضه!

وعندما اختلَت كل منهما بالأخرى بعد الغداء أمطرتها سلوى بالأسئلة.. صبري، ماذا فعل معها وماذا فعلت معه.. انزعجت سلوى فابن خالتها لا يستحق من عبلة ما تفعله به..

- أنا قلت له يا سلوى.. من الأول قلت له!

- طيب وليه ما تتجوزوش؟!

وأطلت من عيني عبلة نظرة سالت كالدموع وامتدت يد سلوى لتربت على يد عبلة:

قالت عبلة وقد تحجَّرت النظرة في عينيها:

- أنا مش عاوزه حد يفهم حاجة، ومش عاوزه حد يمن علي بحاجة!

ورغم هذا كان كل شيء يبدو كالحلم، الدنيا والجبال والثلوج والشوارع والنظافة والناس.. هنا يجب أن يعيش الإنسان، هنا يصبح الشرف شرفًا، الكلمة كلمة، والحب حبًّا، هنا.. هنا. هنا رأت «رمزي» وكأن الأرض انشقت لتخرجه كالمارد من قمقم كان حبيسًا به.

دق قلبها. دق ودق. كانوا في ملهى ليلي، وكانت سلوى تراقص عزت عندما وقعت عيناها عليه، رمزي، رمزي بلحمه ودمه.. يا للسنين عندما تطوى حياة الإنسان بلا رحمة، ياللحب عندما يتحول إلى غدر

من نوع قاتل، يا للأيام تبقى في الوجدان بعذابات بلا حدود.. وعندما التقت عيناها بعينيه، وعندما أطلت من عينيه تلك النظرة المرحة كادت تتهاوى... وعندما وقف أمامها تثلجت أطرافها حتى التجمد. انحنى عليها بابتسامته التي طالما سحرتها:

- عبلة.. والا أنا بحلم!

قالت وهي تمد له يدًا كالجثة:

- ازيك يا رمزي!

■ ■ ■

غير أن القوة ليست غريزة يولد بها الإنسان، وإذا ما أراد الواحد منَّا أن يكون قويًّا فعليه أن يضع أمام عينيه هدفًا لا يحيد عنه.. ثم، يصبح عليه أن يسحق ذاته - إذا ما اقتضى الأمر - لكي يحقق هذا الهدف ومنذ أن فعل رمزي ما فعل كان هدفها هو القوة.. كانت تنظر إلى الناس في الشارع فترى في عيونهم نظرات الشماتة والكراهية لكنهم لا يعرفون أنها أذلت، فيه كانت ترى كل الرجال، وأصبح الهدف - بالقوة وحدها - الانتصار على الرجل، وإذا كانت الطبيعة قد جعلت من المرأة مخلوقًا أضعف، فلِمَ خلقها الله امرأة؟!.. مضت الليلة وإذا بالمارد يهدد في داخلها ساخرًا بالماضي بالحب بكل الذي كان.... ثلاثة أيام في جنيف كان رمزي يطاردها فيها ليل نهار.. ذات مرة كانت تجلس بجواره في السيارة عندما صرخ:

طب إنتِ عاوزه ايه؟!

مش عاوزه حاجة.

- أنا اعتذرت لك عن اللي كان.. أنا عاوز أصلح غلطتي.

- مين قال لك إنك غلطت يارمزي؟!

- عبلة.. اسمعي لما أقول لك..

قاطعته بصوت هادئ واثق:

- اسمع إنت يا رمزي، اللي إنت عملته ما عملتوش غصب عني، أنا مش قاصر، واللي حصل حصل برضاي.. إنت ليه بتعذب نفسك!

- أنا عاوز أتجوزك!

وأنا بعتذر!

- أنتِ خطيبتي!

- دبلتك أهيه!

لحظتها فقط، تذكرت أنها خلعت الدبلة حقًّا لكنها كانت تحتفظ بها أينما ذهبت، أينما كانت، حتى في نومها كانت تحتفظ بالدبلة.. لا تدري كيف كان يحدث هذا لكنها الآن وعته وكأنها ما كانت تفعله إلا حلمًا ووهمًا.. مدت له يدها بالدبلة فلم يمد يده ليأخذها. وفي بساطة وضعتها في جيبه وكانت تشعر أنها تسقط في هذا الجيب.. قلبها ذاته!

سحقًا للماضي كله، سحقًا لكل شيء فما بعد القلب شيء، سوى العذاب دفينًا حتى النخاع.. ها هي القوة تحقق انتصاراتها بانهيار رمزي.. أين هذا الذي يتوسل من هذا الذي تركها بلا كلمة اعتذار. وفي مصر

الآن يربض صبري كالكلب في انتظار أن يلعق يدها بإشارة، أو بنظرة ولسوف تحطم كل شيء كما حطموها، الأب والأم والحبيب والناس جميعًا.. ليسقط الضياع والضعف، ولتصعد سلمها إلى الطائرة المقلعة بها إلى باريس، ولْتتمتع بدموع سلوى ونظرات رمزي الحزينة، لتصعد الآن إلى حيث السحاب وما فوق السحاب، زارت هي السوربون لكنها لن تخرج منه صفر اليدين.. وإذا ما عادت إلى مصر فلسوف تعود منتصرة.. غادرتها مهزومة بها لا ذنب لها فيه، مسحوقة بقوى لا قبل لها بها. لكنها الآن، وبعد أن هزمت رمزي ووقفت تنظر إليه من أعلى.. تعلم علم ا ليقين، أن هذه هي البداية، فقط، هي البداية..

ولكن.. إلى أين.

هذا لم تكن تدري به. بل هذا، ما لم تفكر فيه!

■ ■ ■

نظر إليها البروفيسور أرموند من خلف زجاج نظارته.. وبدت عيناه شديدتي الزرقة..

- بروفيسور.. هل تري في شيئًا غريبًا؟!

زام أرموند ولم يجب عن السؤال لكنه راح يحملق فيها مرة أخرى..

لساعتين كاملتين كانا يتناقشان في الأدب في جان جاك روسو، في موليير، في فولتير، في فيكتور هيجو، في الثورة الفرنسية.. في.. في كل شيء وكانت ممتازة، فلم جاء أيزاك لكي يرشحها؟!

سؤال لم يجد أرموند له جوابًا... ساد بينهما الصمت لدقائق ظلت فيها مبتسمة.. أخيرًا وجد ما يقول فقال:

- مدموازيل كامل.. هل لك أن تخبريني بهدفك من هذه الزيارة؟!

جاء الرد كالصاروخ في قوته وبساطته.

- لا أعتقد أن أحدًا يأتي إلى السوربون إلا للمعرفة والعلم!

- زام لوضوحها وتململ:

- أنا لم أحلم بشيء كهذا!

كان ردها مثل لطمة جعلته يقفز واقفًا:

- ماذا تقولين؟!

- أنا لم أحلم بشيء كهذا وإن كنت أتمناه!

اقترب منها محملقًا فيها بعينيه الزرقاوين.

- على هذا المقعد الذي تجلسين عليه الآن أيتها الآنسة، جلس مئات من الطلبة من كل أنحاء العالم، وعلى مدى ثلاثين عامًا كنت أستقبل هؤلاء الذين يبحثون ويريدون المعرفة، ولقد التقيت فيهم بأنماط ونماذج عديدة.. غير أن المحير في الموضوع كله، أنك ممتازة!

- هذه شهادة أعتز بها حقيقة!

- ليست شهادة لكنه تقرير واقع، إن نطقك للفرنسية يكاد يقترب من الكمال!

- أعرف هذا يا سيدي!

وتوقف.. وبقدر ما هزَّه غرورها بقدر ما أشاع السرور في نفسه، بدت له كطفلة شقية، لم تكن جميلة ذلك الجمال الآسر أو الساحر لكنها كانت جذابة، نعم، في عينيها تحدٍّ غريب..

- مدموازيل عبلة كامل.. ماذا تريدين؟!

- القوة!

- إن القوة في العلم تكمن فيه القوة الحقيقية.

- ولكن في المال تكمن القوة الفعلية!

أثاره ردها لأنه كان حقيقيًا أم لأنه كان سافلًا بالقدر الذي يهزه من الأعماق.. انثنى بعيدًا عن الموضوع هاربًا من المناقشة وراح يهدد متحركًا في الغرفة بانفعال غامض:

- وإذا ما قال لك العالم كله أن نطقك للغة الفرنسية يقترب من الكمال فهذا لا يعني شيئًا.. أما إذا قلت أنا هذا فهذا هو الذي يجب أن يعني بالنسبة إليك شيئًا.

- لقد رددت ما سمعته من الآخرين!

- إنها مملكتي هذه اللغة التي امتصت شبابي وحياتي!

- وأنا يا بروفيسور ملكة في مملكة ذات وقد كشفت لك عنها القناع!

- أتريدين أن تقولي أنك لم تفكري في البعثة أبدًا؟!

- لم أحلم بها وإن كانت تبدو لي الآن وكأنها أمنية الأماني جميعًا!

- مدموازيل كامل.. مَن أنتِ؟!

- أنا.. عبلة كامل!

فليأتِ الجميع إذن ليصفقوا فليس بعد هذا انتصار.. ولو أنها رأت ما حدث اليوم في السوربون في الحلم لاستيقظت وظلت تضحك من الأعماق لم تكد تتفوه بالإجابة حتي وقع الأستاذ صريع القوة، ولقد قال نابليون ذات يوم: لا توجد كلمة مستحيل إلا في قاموس الضعفاء... وها هي القوة تؤتي ثمارها.. يجري نهر السين تحت قدميها كالحلم الذي طال انتظاره، وهي تعرف رقم الأتوبيس الذي ستركبه لكنها لا تعرف أين تنزل منه.. أعطاها البروفيسور بيير في القاهرة عنوان بنسيون رحبت بها صاحبته واختفت.. وها هي تصعد الأوتوبيس تكاد تصرخ من السعادة والفرح، ولسوف تبقى في القاهرة أسابيع تعود بعدها إلى مدينة النور، تميل على جارها لتسأله عن المحطة بالفرنسية فإذا الرد يأتيها بالعربية:

- لسه فاضل محطتين.

تطلعت إليه فإذا الوجه أوروبي تحوطه لفحة الشرق الدافئة:

- أيزاك.. اسمي أيزاك!

- وعرفت منين إني مصرية!

- اللي يعيش في مصر تمنتاشر سنة مش محتاج حد يعرَّفه على حد مصري؟!

- إنت عشت في مصر تمنتاشر سنة!

واتصل الحديث.

وكان أيزاك رقيقًا كالفرنسيين، فرنسي هو لكنه ولد في القاهرة عندما كان أبوه موظفًا ببنك الكريدي ليونيه.. في حديثه رنة صدق لا تخطئها إذن غير أنه صدق مشوب بالغموض.. غادر معها الأوتوبيس وسار بجوارها حتى البنسيون وأعطاها رقم تليفونه ووضع نفسه تحت أمرها لو أرادت.. ودعته فانصرف دون أن ينظر خلفه. دلفت إلى الداخل فلم تلحظ تلك النظرات التي كانت تحيط بها أينما ذهبت، رحبت بها مدام لاروش صاحبة البنسيون وغمزت بعينيها وهي تحذرها من الرجل الفرنسي الذي يتقن الغزل كما يتقن شرب النبيذ.. تناولت طعام الغداء وصعدت إلى غرفتها غير أن السعادة حملتها على أجنحتها بعيدًا عن النوم.. حل المساء فهبطت إلى الطريق وكان الشانزليزيه هو بغيتها. ها هي الحرية أخيرًا بين يديها كاملة، لا أب ولا أم ولا صبري يطاردها ليل نهار بعذاب بلا حدود.. جلست في أحد المقاهي وطلبت قهوة سوداء وسرحت - رغمًا عنها - إلى صبري، ذات يوم كان يحكي لها عن المطارات وهناجر الطائرات التي يبنيها.. كان يحكي عن الجبهة وقواعد الصواريخ. كان يجلسان على النيل عندما سألته:

- إلَّا قوللي ياصبري.. مش الكلام اللي انت بتقوله ده سر؟!

وتلجلج كطفل صغير يحبو، ارتبك وتضرج وجهه بالحمرة..

- انت زعلت؟!

- لا..!

- أمال مالك؟!

- اسمعي يا عبلة.. اللي زيي الناس بتحسده علي اللي هو فيه.. أنا عندي 32 سنة ومدير عام.. أنا بحب شغلي آه.. إنما بتعب فيه، عارفه يعني إيه مطار سري عارفة يعني إيه ملجأ لطيارة ثمنها كذا مليون جنيه، عارفة يعني إيه قاعدة صواريخ أنا ليل ونهار مغروس في شغلي، وعمري ما اتكلمت مع حد في الشغل ده.. لكن الواحد ساعات بيحب يفضفض.. أفضفض مع مين لو ماكنتش حافضفض معاكي؟!

يومها بدا لها صبري مثل طفل حقيقي.. كان رقيقًا.. كان معذبًا. كان. كان وحيدًا.

- بونسوار مدموازيل عبلة!

- رفعت رأسها وكان وجه أيزاك يطل عليها باسمًا.

- بونسوار مسيو أيزاك!

- تسمحي لي أقعد معاكي!

- من فضلك!

وجلس!

■ ■ ■

صاحت سلوى في عزت!

- عزت تكونش بتغير من عبلة صحيح؟

- دي مش غيرة يا سلوى!

- أمال إيه الكلام اللي انت بتقوله ده!

- تعالي نحسبها سوا.. إزاي تقولي إن عبلة إنسانة عادية وهي بترفض كل حاجة حلوة بتيجي لها؟

- هي دي عبلة!

- رمزي اعتذر لها.. رمزي تعبان!

- وهي كمان تعبت أكتر منه. خليه هو يتعب شويه!

- طب وصبري.. ابن خالتك؟!

- عبلة مش بتحبه!

- أمال بتحب مين؟!

كان هذا هو السؤال الذي يشغل بال سلوى... ... كانت تحب عبلة: نعم.. وكانت تعرف عنها ما لا يعرفه أحد: نعم.. وكانت معجبة بها: نعم.. غير أن هذا السؤال ظل مطروحًا بلا إجابة.. ومنذ أن فعل رمزي فعله معها، وهي تتغير، شيء غريب كان ينمو تحت جلدها. شيء مخيف كان يقود عبلة نحو مجهول لا يعرفه أحد.. ربما كان عزت على حق وربما كان مخطئًا، وسواء أكان هذا أم ذاك. فلا شيء بعيدًا عن عبلة.. لا شيء.. التفت إلى عزت وكان مستغرقًا في مشاهدة التليفزيون:

- عزت.. إنت عاوز تقول إيه على عبلة؟!

- عاوز أقول إن عبلة إما تطلع في سابع سما.. وإما حاتنزل..

وقاطعته سلوى: سابع أرض.

التفت نحوها واعتدل وقال:

- ياريت.. كانت تهون!

ليلتها لم تنم سلوى قبل الخامسة صباحًا.. فما الذي كان يفكر فيه عزت؟!

■ ■ ■

كانت بجواره وكل ذرة في عقلها تحسب الحسبة.. ولا جواب.

كان صحفيًّا في إحدى وكالات الأنباء وكان مسئولًا عن الشئون العربية وكان يعرف كل ما يجري في باريس عن العرب.. عندما علم أنها ستعود لبعثة دراسية نبهها إلى أن مرتب البعثة لن يكفيها لكي تعيش في باريس وإذا كان البروفيسور بيير قد قال لها في الصباح إن اللغة نتاج حضارة فها هو أيزاك يقول:

- علشان تعرفي فرنساوي كويس لازم تعيشي في باريس!

سألته عن نفسه فراوغ وزاغ ولم يذكر لها شيئًا رغم أنها ذكرت له كل شيء. قال لها إنها تستطيع أن تجد عملًا في «الشركة العربية للتصدير والاستيراد». لكنه لم يذكر لها أنه يعرف فيها أحدًا.. سألته فجأة:

- طب إزاي تعرف كل الحاجات دي ولا تعرفش حد من العرب!

ونظر إليها نظرته تلك الواثقة الغريبة وقال:

- إنتِ نسيتي إني صحفي!

- ما هو علشان صحفي لازم تعرف الناس!

- أنا أعرفهم إنما هم مش لازم يعرفوني!

و.. لقد كان حديثه أقرب إلى الواقع وهو يحكي عن الصحافة في الغرب.. و.. ولقد كان حديثه طليًا شائقًا وهو يحكي عن متاعب المهنة.. و.. ولقد كان حديثه مثيرًا وهو يحكي لها عن تتبعه ذات يوم لزعيم عربي جاء إلى باريس سرًّا لعقد صفقة سلاح لكنه سبق الجميع بالنبأ بعد مطاردة استمرت أسبوعين..

وعندما ودَّعها أمام البنسيون لم يطلب منها موعدًا للقاء.. لكنه ذكرها بأنها تحمل رقم تليفونه.

لكن عبلة عادت إلى القاهرة دون أن تطلبه ودون أن تراه..

■ ■ ■

في مساء أحد أيام سبتمبر كان أيزاك يجلس مع ديفيد.. وكان ديفيد قد وصل من تل أبيب منذ ساعتين فقط.. وكان الحديث بينهما يدور حول عبلة كامل.. قال ديفيد:

- تحب نتكلم بالعربي؟!

- أحسن علشان أتمرن شوية معاك!

- عبلة كامل حاتوصل باريس بكرة!

- والمطلوب؟!

- الأوامر في تل أبيب بتطلب تجنيدها بأسرع ما يمكن.. كل التقارير اللي اتقدمت عنها بتقول إن عبلة كامل من الممكن تكون مفيدة بشكل غير عادي!

- علشان علاقتها بصبري عبد المنعم؟!

- مش بس صبري.. عبلة.. عبلة.. نفسها مطلوبة للغاية!..

■ ■ ■

بعد ذلك بأربعة أسابيع كانت عبلة تسير بجوار أيزاك على شاطئ السين، كان الخريف يحمل معه بشائر برودة الشتاء القارس.. وكانت الأسابيع التي مضت تحمل في أحشائها الكثير من التغيرات.. وكانت المناقشة بين عبلة وأيزاك تدخل طورًا غريبًا.. التفتت إليه عبلة قائلة:

- أيزاك.. إنت قلت لي إنك صحفي!

- عبلة. مالك؟!

- وطلبت مني إني «أديك» أخبار عن الطلبة العرب والمصريين!

- أنا عاوز أزود دخلك يا عبلة!

- سألتني عن كل حاجة في حياتي وعرفتها!

- مجرد دردشة!

- في الأول كنت عاوز تعرف أخبار!

- شغلي يا عزيزتي. أكل عيشي!

- وبعدين بدأت تسأل عن أخبار من نوع معين!

- الصحفي بيجري ورا المتاعب!

- وبعدين بدأت تسأل عن أسرار!

- ودي فيها إيه؟!

ودلوقتي على الشركة العربية، ورحت وسألت ولقيت شغل!

- لأنك موهوبة!

- ورغم كل ده.. عمرك ما قلت لي إيه اسم وكالة الأنباء اللي انت بتشتغل فيها!

وساد بينهما الصمت.. ساد تمامًا. ولم يعد أيزاك يسمع سوى صوت خطواتها فوق بلاط الشارع.. راح يرقب عبلة وهي تسير بجواره.. كانت في عينيها نظرة غريبة كانت مخلوقة غريبة وعندما راحت تتحدث من جديد كانت وكأنها تتحدث مع نفسها:

- سألتني عن صبري وعن شغله..

- سألتني عن المطارات السرية، سألتني عن الجبهة!

- عبلة.. عاوزه تقولي إيه؟!

عاوزة أقول إنك بتشتغل لحساب إسرائيل؟

- وتجمدت الابتسامة على شفتيه.. وكاد يشهق وهو يسمعها تقول:

- وأنا مستعدة أشتغل معاكم.. تدفعوا كام!

■ ■ ■

أبدًا.. ولا أدق أجهزة التحليل البشري في «الموساد».

- المخابرات العامة الإسرائيلية - استطاع أن يتنبأ بهذا الذي حدث... لا الكمبيوتر ولا المعلومات ولا التحليلات ولا هذا الحشد من العقول الجبارة الذي انكب يدرس ما حدث.. استطاع أن يصل إلى تفسير...

لم يكن التقرير الذي كتبه «أيزاك» من باريس، تقريرًا.. ففي تلك الليلة الخريفية التي عرضت فيها عبلة عليه أن تتعامل مع المخابرات الإسرائيلية لم يستطع أن يكتب شيئًا، لم يكن هناك ما يمكن أن يكتب... ظل وقتًا طويلًا بعد أن ترك عبلة حائرة، كان هذا الذي حدث فوق كل تصوراته، فلم يجد ما يكتبه سوى نص الحديث الذي دار بينه وبينها على شاطئ السين في باريس.

في تلك الأيام انكب أحد العلماء، وكان أشيب الشعر عريض الجبهة، لم أستطع الحصول على اسمه - ربما لاعتبارات أمن مصرية!! - قد قرأ نص الحديث مرات، ثم خلع نظارته الطبية وغرق في التفكير العميق... كان قد اطلع على كل شيء عن عبلة كامل، ثم خرج بنتيجة مذهلة، تلك النتيجة كانت تقول: إن عبلة كامل ظاهرة.

بعد أسبوعين خرجت من الموساد تعليمات موجهة إلى باريس تقول:

«لا بد من وصول عبلة إلى تل أبيب!».

كان هذا هو الحل الوحيد، أن توضع «الظاهرة» تحت الفحص الدقيق في تل أبيب نفسها، في داخل الموساد وتحت مجهر أعتى خبراء الإنسان، وأحدث الأجهزة العصرية لكشف الكذب والصدق ولمعرفة هذه «الظاهرة» التي لم يسبق لها مثيل في عالم الجاسوسية.

ودق جرس التليفون في غرفة عبلة ذات صباح، وجاءها صوت أيزاك، وكان يتحدث «بالكود» وهو حديث بالشفرة لا يستطيع فهمه سواها.. وكان يحدد لها موعدًا بعد ساعة واحدة بالضبط.

في ذلك الصباح على وجه التحديد، كان في القاهرة ضابط مخابرات شاب اسمه «عمر حمدي». وكان عمر يتذكر مقابلة الليلة السابقة مع «الدكتور»... كان «الدكتور» كالعهد به بسيطًا إلى حد الغموض الشديد، وكان يتحدث عن نشاط الإسرائيليين الذي تزايد في السنوات الأخيرة في باريس بالذات.. وكعادته، لم يقل الدكتور شيئًا عن الموضوع الذي استدعى عمر من أجله.. كان يعلم أن «عمر» ضابط من نوع خاص، لا يقتله في الدنيا سوى الروتين والنظام والقيود.. وكان إذا ترك لحاله، تصرف في حدود الروتين والنظام دون أدنى خلل.. كان يعلم أن عمر «هاو» أكثر منه محترفًا... كذلك، ففي نهاية المقابلة التي شرب أثناءها عمر كوبًا من الينسون سلمه الدكتور مظروفًا أصفر كبيرًا، وتبادل كل منهما النظرات، ثم انصرف عمر!

كان كل ما يحويه المظروف شيئًا غريبًا.. قد يحدث لي أو لك، قد يصادفك أو يصادفني دون أن يلفت أنظار أحد على الإطلاق.. كان «أحمد» ضابط المخابرات المصري في باريس يكتب عن مقابلة جاءت بمحض الصدفة، بينه وبين الدبلوماسي الشاب عزت حسين، وكان عزت عريسًا حديثًا يصحب عروسه إلى قمم الجبال للانزلاق على الجليد.. لم يكن هناك ما يثير في عزت وعروسه سلوى، لكن الذي لفت نظر أحمد - وكان صديقًا لعزت تقابل صدفة معه فوق قمة أحد الجبال

للاستمتاع بالجليد - ذلك الحديث الذي يدور بين عزت وسلوى حول صديقة لسلوى تدعى «عبلة كامل».. ولقد نسي أحمد ذلك الحديث بعد دقائق من مغادرته لسويسرا في طريقه إلى فرنسا في نهاية عطلة الأسبوع.. غير أنه تذكر كل شيء فجأة، عندما سمع اثنين من المصريين، كانا يجلسان ذات مساء على أحد مقاهي الشانزليزيه، وكانا يتحدثان بحماس شديد عن «عبلة كامل»؟

هو نوع من الحدس لا يستطيع الإنسان تبريره على الإطلاق، غير أن «أحمد» عرف في صباح اليوم التالي، أن عبلة تشغل وظيفة سكرتيرة لمدير الشركة العربية للاستيراد والتصدير في باريس، وأن حيويتها ونشاطها جعلا منها حديث الناس في المكتب.. كان كل شيء، منذ أن تولت عبلة عملها هناك يسير بدقة ونظام جعلا منها نجمًا يلهج الجميع بالثناء عليها.. إلى هنا كان الأمر طبيعيًّا للغاية، لكن غير الطبيعي أن عبلة لم تكن قد قضت في باريس سوى شهور قليلة، ورغم هذا كانت كل التقارير التي كتبت عنها في السوربون تقول إنها أكثر من ممتازة.. وفوق كل هذا لم يقتصر الأمر على نشاطها العلمي، بل تعداه إلى ذلك النشاط وتلك الحيوية التي تميزت بها عبلة وسط الطلبة العرب في السوربون، وعلى مقاهي الشانزليزيه.. ولم يكن شكا بحال من الأحوال، هذا الذي دفع أحمد - ضابط المخابرات المصري الذي يشغل وظيفة مدنية في باريس - إلى السعي للقاء عبلة. أبدًا لم يكن الشك، فلم يكن حول هذه الفتاة المصرية أي شيء يثير الشبهات، لكنه كان حب الاستطلاع!

ولقد تعمَّد هذا الشاب أن يلتقي بعبلة، لكنه - شأنه شأن هؤلاء الرجال الذين تعوَّدوا أن يقبعوا خلف أسوار الصمت. تعمَّد أيضًا ألا تلتقي هي به... وكانت المفاجأة مذهلة.

ذلك أنه في علم المخابرات غير المكتوب، والذي يكتسب بالتجربة والمران والخبرة المتراكمة عبر السنين، يوجد نوع من الأسئلة، أو أسلوب للمناقشة، يبدو لأشد العيون والأذان تدقيقًا، أسئلة أو مناقشة عادية، لكنها بالحس وحده يظهر أن هذا النوع من الأسئلة من نوع الأسئلة الاستشارية، التي تستشير السامع فتدفعه للإدلاء بالمعلومات في مجال المفاخرة أو المباهاة أو محاولة التظاهر بالعلم ببواطن الأمور، أو حتى في مجال الحماس.

كانت أسئلة عبلة من هذا النوع؟..

فكيف؟!..

كان الأمر عويصًا غريبًا مثيرًا دون شك.. فإن الجاسوس القادر على إلقاء هذه الأسئلة، لا بد أن يمر بمراحل تدريبية عنيفة، تجعل قدرته على التحكم في إلقاء السؤال وأسلوب طرحه وحتى نبرة الصوت، لا توحي بأقل قدر من الشك.. ولقد كانت عبلة قد قضت فترة بسيطة في باريس، وكان تدريبها على هذا المستوى، أمرًا مستحيلًا.

مرة أخرى... كيف؟!

وفي حديقة النادي، وتحت شمس الخريف، كان «عمر حمدي» يفكر في عبلة كامل... ويبدو أنه في لحظة كان قد توصل إلى قرار، فلقد غمغم وهو ينهض بكلمة غريبة... قال:

- ظاهرة.. ثم انصرف!

■ ■ ■

في تل أبيب كانوا أمام طريقين.

فإما أن تكون عبلة كامل عميلة للمخابرات المصرية، دُرِّبت تدريبًا عاليًا..

وإما أن تكون.. «ظاهرة»!!

وكان الحل في وصول عبلة إلى تل أبيب.. ولكن، قبل رحلتها الخطيرة تلك.. لا بد من قيامها برحلة إلى مكان آخر.. رحلة استكشافية إلى «القاهرة»...

وكان هذا ما قاله أيزاك لعبلة في ذلك الصباح...

- عاوزينك تسافري مصر، وتحاولي تعرفي معلومات عن محطات الصواريخ بين مصر وإسكندرية!

- «أو. كي».

قالتها عبلة وكأنها تلبي دعوة للسينما!

كانت التقارير التي تقدمها عبلة عن الشركة العربية للاستيراد والتصدير، مذهلة وكانت معلوماتها عن الطلبة العرب واتجاهاتهم السياسية رهيبة، أكثر من ذلك، فلقد دفعت إلى «عملاء» أيزاك، الذين لا تعرفهم، ببعض الطلبة العرب الذين حملوا إلى بيوت الملذات هناك، حيث يغرقون في الخمر واللحم الأبيض، وينزلقون من حيث لا يشعرون بكل ما يعرفون من معلومات!

■ ■ ■

هنا وهناك كان الأمر غير طبيعي، وهناك كان الأمر يدعو للدهشة والشك..

أما عبلة نفسها، فكانت تحيا وسط خضم رهيب من الإحساس بالسيطرة والجبروت والانتصار!

وها هي القاهرة مرة أخرى تحت قدميها.. ومنذ أسبوع زارها «رمزي» في باريس، كان يريد ولا يريد، في عينيه نظرة توسل وقد وقع في حبها حتى قمة رأسه، وكم تلذذت وهي تركب بجواره سيارته «المرسيدس» الفاخرة، وكم تمتعت وهي تستمع إلى موسيقى «الكاسيت»، وكم خفق قلبها وهي تسمعه يهمس:

- عبلة... مش نتجوز بقى؟...

لكنها ابتسمت، لم تفكر لحظة، وقالت:

- لا..!!

غير أن صبري عبد المنعم كان في انتظارها في المطار، وكان صبري بالذات هو بغيتها هذه المرة!

وكم كانت إجراءات الجمارك معها سهلة، رحبوا بها - على غير العادة - ولم يفتحوا حقيبة واحدة من حقائبها الأربع.. كانت قد اشترت كل ما تحتاج إليه أمها، وكان أبوها قد سافر إلى إحدى الدول العربية مهاجرًا من جحيم الأم... وكان صبري فرحًا سعيدًا يقبل يدها بين الحين والحين وهو يهمس:

- وحشاني!

وكانت تبتسم.. وكانت تعرف الطريق جيدًا إلى بغيتها...

- صبري.. عاوزه أتفسح.. مصر وحشاني!

وإذا كان الملل هو سر القوة، فها هي تحصل على المال بالزوفة.. وإذا اقترب منها أحد فإنها تتحداه أن يعثر على دليل واحد ضدها... مصر وإسرائيل أو حتى جهنم.. لا يهم، لا يهم، المهم أن تبقى قوية، وأن تظل قوية.. هناك، فوق القمة لا يهجرها رجل من أجل امرأة، أو من أجل فقر نشأت فيه دون ذنب.. المال هو القوة الحقيقية يا بروفيسور أرموند صدقني، ومهما قلت عن العلم فمهمته الحقيقية هي زيادة حصيلتك من المال... فالمال هو الذي يشتري ويبيع ويبني ويهدم، وهو الذي يخترع ويبتكر أيضًا...

ما لك يا عبلة؟!

كان في الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية الطريق الزراعي حيث اللافتات تقول: ممنوع مرور الأجانب... وكانت تطلق ضحكة، وكان صبري يجيب، هنا مطار سري وهنا مطار سري، في هذا المطار بنى صبري أربعة هناجر للطائرات، أما هذا فيقع على بعد 20 كيلومترًا داخل المزارع، ولقد وقعت فيه حادثة كاد صبري يفقد فيها عمره.

كان يكفي أن تلقي إليه سؤالًا بسيطًا، كي يقول ويقول، فتسمع هي وتسمع، وتختزن وتختزن...

في الإسكندرية قضيا يومًا رائعًا.. أعطته عبلة شفتيها نعم، لكنها لم تعطه أكثر..

وفي اليوم التالي عادا من الطريق الصحراوي.. وفيه عرفت عبلة مواقع وحددت في رأسها خرائط، وقال صبري الكثير من المعلومات!

وعندما عادا إلى القاهرة، كانا يبدوان في قمة السعادة..

لكن إنسانًا آخر، في القاهرة، كان يبدو تعيسًا أشد ما تكون التعاسة.. وكان اسم هذا الإنسان.. «عمر حمدي».. وكانت وظيفته: ضابط المخابرات العامة المصرية.

■ ■ ■

خرج عمر بيقين لا يقبل الجدل.. أن عبلة كامل: جاسوسة!

وإذا كان لا يملك الدليل.. فإنه تعود الصبر.. وذات عصر كانت تجلس مع صبري عبد المنعم في أحد الكازينوهات المطلة على النيل، أما عمر فكان جالسًا في سيارته، بعيدًا عنهما تمامًا، على الطريق العام، غير أنه كان يسمع كل كلمة يقولانها!!.. فتحت غطاء المائدة الأنيق، كان ثمة رأس مسمار صغير لا يلحظه أحد ولا يراه، وكان رأس المسمار هذا شديد الحساسية، ينقل كل كلمة وكل حركة وكل صوت مهما خفت، بدقة شديدة إلى سيارة عمر....

- ما لك يا عبلة!؟

- أبدًا يا صبري....

- مسافرة بكرة!

- حاوحشك!؟

قال صبري: «قوي قوي»... ثم ضاع الصوت في سيارة عمر.. فلا بد أن صبري وضع يده فوق رأس المسمار.. وكان في مكانه يستطيع أن يرى صبري بوضوح وقد أمسك بيد عبلة.

- فيه إيه يا عبلة لازم تقولي لي!

وقصَّت عليه عبلة القصة.. أن قومًا في باريس أنقذوها من ورطة وقعت فيها، ورطة تقع فيها أي فتاة غريبة في بلد غريب.. هؤلاء الناس لا يريدون مقابلًا لما قدموه لها سوى بعض المعلومات، إنهم يعملون من أجل السلام..

- إنت بتبني للحرب يا صبري.. إنت بتبني دشم وهناجر وقواعد وصواريخ.. لكن.. هل انت عاوز الحرب؟!

ساد الصمت.. وتوتر عمر في جلسته، إنه يريد أن يدفع أي عدد من سني عمره ولا ينزلق هذا الشاب، لو أنه عرف قبل اليوم - على وجه اليقين - أن هذا سوف يحدث لنقله، لطلب سفره إلى آخر الدنيا حتى لا يلتقي بعبلة.. إن كل شيء يتم بسرعة جنونية، هذا الشاب العبقري يفقد حياته ووطنه، يفقد كل شيء من أجل نظرة من عيني فتاة انغرس الحقد في قلبها حتى نخاع النفس ذاتها..

- عاوزه إيه يا عبلة!

- أي معلومات هايفة!.

- بس المعلومات اللي عندي سرية، خطيرة!

استكانت عبلة كقطة، قالت:

- طيب بلاش!

وجن جنون صبري، ها هي طوع يديه، ولكن عليه أن يدفع الثمن..

- على العموم إنت مش حاتقول لي حاجة ببلاش، كل بتمنه!..

- تمن إيه يا عبلة.. مهما كان التمن، دي أسرار البلد!..

- خلاص. يعني لما نتجوز، حاتعمل بيتنا منين، وازاي؟!

وكانت هذه هي القشة التي قصفت عمر صبري.. ففي تلك الليلة، أعطته نفسها لأول مرة وآخر مرة، فقال: نعم!..

كان هذا هو الجنون بعينه.. ولا بد من استدعاء عبلة كامل إلى تل أبيب في أسرع وقت!..

كان أيزاك مذهولًا مما حدث.. لقد كسرت عبلة كامل كل قواعد الأمن وقوانينه..

- إنت مجنونة.. إزاي تعملي كده؟!..

في برود ردت عليه:

- بلاش تاخد المعلومات.. بسيطة!..

- عبلة.. فيه حاجه اسمها أمن.. وتدريب.. دانتي كنتي مكلفة إنك تجيبي شوية معلومات وبس.. لكن تشتغلي فرازة، وتجندي صبري.. ده جنان، حا يبلغ عنك!..

ضحكت عبلة وقالت:

- صبري هنا.. في شنطة إيدي دي!..

وبعد لحظات قالت:

- على العموم، أنا ما قلتش حاجة خالص.. وإذا حد اتشنق، أنا اللي حاتشنق يا أيزاك!..

بعد أسبوع بالتمام والكمال.. كان «عمر حمدي» يقف في مطار «روما» وهو يرتدي بالطو ثقيلًا، وقبعة إنجليزية، ونظارة شمسية سوداء.. وكان يرقب عبلة كامل، وكانت قد وصلت من باريس في نفس اليوم، وهي تتجه نحو إحدى طائرات شركة العال الإسرائيلية في خطى ثابتة.

كان يعرف أنها تحمل جواز سفر إسرائيليًّا، وكان يعرف اسمها الجديد!!

ثلاثة أسابيع في إسرائيل، زارت فيها عبلة كامل، أحد الكيوبترات، كما زارت مواقع الجيش الإسرائيلي في الجبهة المصرية - !!! - وزارت أيضًا مبنى الكنيست وحضرت إحدى المناقشات الحادة!

ثلاثة أسابيع قضتها عبلة كامل في إسرائيل.. ثلاثة أسابيع تركت فيها علامة غريبة..

كانت كل أجهزة الفحص قد أثبتت أن عبلة كامل ليست عميلة للمخابرات المصرية.. لكنها أيضًا أثبتت أنها «ظاهرة» غريبة.. ففي إحدى الحفلات التي أقيمت لها، رفع أحدهم كأسًا قائلًا:

- نخب البطلة عبلة كامل!..

وشرب الجميع النخب إلا هي...

- مدموازيل عبلة.. نحن نشرب نخبك؟!

- لكني لست بطلة.. أنا جاسوسة!

وذهل الجميع، غير أن عبلة كانت تبتسم...

وفي آخر لقاء لعبلة مع واحد من كبار ضباط «الموساد»، كان يحضر اللقاء أربعة من ضباط المخابرات الإسرائيلية.. وكان الضابط الكبير يبدو سعيدًا سعادة لا حد لها وهو يقول:

- صدقيني يا آنسة عبلة.. إنك أفضل عندي من هؤلاء الأربعة مجتمعين!!

وكان هذا نصًّا من الاعترافات التي أدلت بها عبلة كامل بعد القبض عليها.

■ ■ ■

هذه قصة واحدة من أعنف قصص الذكاء في هذا العالم الغريب..

كان عام قد مضى.. وكان صبري قد انزلق تمامًا.. أصبح جاسوسًا يكتب التقارير بالكربون السري ويرسل الإشارات اللاسلكية.. القصة طويلة، وانهيار هذا الشاب وحده يحتاج إلى صفحات وصفحات، ويوم أعطته عبلة أول ألف جنيه، أنفق منها عليها ثمانمائة جنيه قبل أن تعود إلى باريس.. وعمر حمدي، هذا الشاب الصبور الذي كان يعلم أن

أيزاك هناك على الشاطئ الآخر للبحر الأبيض المتوسط يرسم الخطط ويدبر، والذي كان يعلم أن الانتصار يعني الصبر.. ولم يكن الانتصار هو القبض على عبلة أو صبري.. ذلك أن الجاسوس، يوم أن «يُعرف» يصبح بلا قيمة بالنسبة للجهاز الذي يقاومه، إنه يوضع، ليل نهار، كل لحظة من لحظات عمره، كل همسة وكل حركة تحت التسجيل الدقيق، هنا كان صبري مكشوفًا تمامًا بلا قيمة وكل المعلومات التي كانت توضع تحت يده كانت صحيحة، لكنها كلها كانت معدة بدقة لا تقبل الشك لحظة.. وهناك كانت عبلة قد استأجرت مسكنًا فاخرًا وعاشت فيه.. الجاسوس يصبح بلا قيمة للجهاز الذي يقاومه يوم يكشف أمره، ويصبح بلا قيمة للجهاز الذي يشغله يوم يُقبض عليه..

لم يكن هناك خطر من صبري أو من عبلة، ولقد كان الهدف، والضربة، هو أيزاك..

وكم تمنى «عمر حمدي» أن يجرجر رجل أيزاك إلى القاهرة!

غير أن «الدكتور» - كعادته - استدعاه ذات يوم..

- إيه الأخبار يا عمر!

وبسرعة أفضى عمر بتقرير مركز ومكثف عن القضية.

بعدها ساد الصمت طويلًا.

- فيه حاجة يافندم؟!

قال «الدكتور»:

- اقبض على صبري عبد المنعم!

لطمة كانت هي. ضربة قاضية لكل الخطط التي وضعها عمر حمدي.. أصيب للحظات بذهول.. كان هذا الأمر مثل قبضة رهيبة تهوي فوق رأسه.. إن القبض على صبري، معناه أن عبلة أصبحت طليقة إلى الأبد..

- عبلة في باريس يافندم!

- وعبلة لازم تيجي مصر.. بأي ثمن!

- يافندم..

وقبل أن يكمل عمر حمدي قاطعه الدكتور:

- ده أمر ياعمر.. اقبض النهارده على صبري.. وعبلة لازم تيجي مصر في أقرب وقت!

- طب إزاي!

- بأي شكل!

ساد الصمت تمامًا تلك الغرفة العتيدة ذات الجدران العالية والزخارف، والتي كانت ذات يوم مملوكة بالقصر الكائنة فيه لأحد أثرياء اليهود الذين امتصوا دم الشعب لأربعين عامًا، ثم تركوا مصر بثرواتهم إلى الخارج.. كان هذا الأمر - الآن- يعني بالنسبة لعمر شيئًا غريبًا.

- امتى يافندم آخر ميعاد لازم تيجي فيه عبلة!

- قبل أكتوبر ياعمر.. قبل أكتوبر!

كان هذا الحديث في اليوم الثالث من شهر مارس عام 1973.

وخرج عمر حمدي ورأسه يدوي بآلاف الأسئلة.. وكان في هذا الحديث الكفاية!

■ ■ ■

- .. صبري.. أنا عاوزك تسمعني كويس، عاوزك تفتح لي ودانك، أنا معنديش لك أي وعد بأي حاجة.. كفاية إنك اعترفت أنك أخطأت في حق البلد وهي في حالة حرب، كفاية كل اللي قلته،وكفاية الأدلة اللى اكتشفت إننا عارفين مكانها من زمان.. الكربون السرى ، الشفرة ، جهاز الإرسال.. كل حاجة .. كل حاجة!

كان صبري يجلس ذاهلًا عن كل شيء منذ أن قُبض عليه بمعرفة النيابة.. وكانت النيابة العسكرية قد استجابت لرجاء المخابرات العامة بأن يبقى صبري في بيته لا يبرحه.. ولقد تعود رجال النيابة العسكرية ألا يسألوا عن الأسباب.. تم كل شيء في هدوء، وانهار صبري واعترف بكل شيء.. وها هو عمر، شاب دمث الخلق، يحدثه برقة.

- إيه اللي مطلوب مني يا عمر بيه؟!

- عبلة كامل!

وساد الصمت..

ساد تمامًا. ولدقائق زادت على الخمس لم ينطق أحدهما بكلمة.. بعدها نهض عمر قائلًا:

- خذ وقتك وفكَّر.. ولما يستقر رأيك على حاجة، ادِّيني خبر!

- أنا موافق.. إيه المطلوب مني؟..

■ ■ ■

جلس أيزاك في الشقة الفاخرة التي استأجرتها المخابرات الإسرائيلية لعبلة كامل في حي من أرقى أحياء باريس، وكان يمسك بيده كأسًا من الكورفوازيه الفاخر، وقال:

- إنتِ إيه رأيك ياعبلة!

- رأيي إني أسافر طبعًا

ورغم كل ما كانت تتمتع به عبلة من عبقرية، فإنها كانت تنقصها الخبرة!

فلقد اشتمَّ أيزاك من تلك الرسالة الشفرية التي وصلت.. والتي طلبت من عبلة أن تسافر إلى بيروت لتلتقي، بعد أربعة أسابيع بالمهندس علي شاكر عضو البعثة الاقتصادية المصرية، لتتسلم منه رسالة هامة، اشتمَّ رائحة ليست طبيعية.

- أنا مش مرتاح للرسالة دي يا عبلة..

- إيه السبب.. صبري بعت رسالته في ميعادها بالضبط، وبيبعت رسايله في ميعادها بالضبط.. تلقاه صوَّر لنا كام خريطة مهمين وبعتهم

مع واحد صاحبه على أنها جواب غرامي لي.. والميكروفيلم تحت ورقة البوستة عادي!..

جرع أيزاك كأس الكونياك دفعة واحدة، ونهض قائلًا:

- واشمعنى بيروت!..

وضحكت عبلة...

- لأن البعثة دي مسافرة بيروت!..

وسار أيزاك إلى ركن في الصالون كان يحتفظ فيه برقعة شطرنج.. كانت الرقعة تمثل جانبين، أحدهما أيزاك.. وكانت قطعة قد تحركت كثيرًا وفي كل اتجاه وقد حاصرت قطع الجانب الآخر الذي كان - حتى ذلك الوقت في رأي أيزاك - لم يحرك قطعة واحدة من قطعه.. ووقفت عبلة ترقبه وقد استغرق في التفكير.. ثم امتدت يده لتحرك قطعة من الرقعة الأخرى.. وسألته عبلة:

- إيه ده؟!

- لو كانت مصر حسّت بحاجة.. حاتتصرف كده!. ثم ملأ صدره بالهواء وقال:

- لازم نأخذ رأي تل أبيب!..

■ ■ ■

جذب «عمر حمدي» الملف السري من بين يدي وقد كنت مستغرقًا في قراءته وقال:

- ده ما بقاش جهاز مخابرات.. انت عاوز إيه؟!..: قلت: «عاوز اللي حصل»!..

- مش ممكن؟!..

قلت وأنا أضحك:

- لاعتبارات الأمن.. مش كده!

ومال عمر في غيظ وهو يقول:

- انت بتضحك؟!.. انت تعرف إننا لو مكناش قبضنا على عبلة كامل، ماكانش ممكن حرب أكتوبر تتم بالكفاءة التي تمت بيها؟!..

كان عمر حمدي هو الآخر يلعب الشطرنج في مكتبه بمبنى المخابرات العامة في القاهرة، مع مجهول..

كان هذا المجهول بالنسبة إليه معلومًا.. كان هو أيزاك.. وقد استغرق في تلك الأيام في مراجعة رقعة شطرنجه لساعات.. كيف يمكن أن يتحرك أيزاك؟!.. وهل تأتي عبلة إلى بيروت لتلتقي بالمهندس علي شاكر؟!

وطلب من معاونه أن يحجز له مقعدًا على أول طائرة إلى جنيف..

كانت ساعة الصفر تقترب.. وكانت قطع الشطرنج في مكتب عمر حمدي قد تداخلت الآن تمامًا.. وبدا أن المعركة محتدمة احتدامًا شديدًا..

وبعد عشرين ساعة بالتمام والكمال، كان يجلس في مكتب «عزت» بالسفارة المصرية في جنيف.. وكان الحديث الذي أدلى به إلى عزت،

بوصفه دبلوماسيًّا مسئولًا، قد حوَّل وجه عزت إلى لون الشمع الأبيض.

- أنا عارف إن الصدمة مش عادية يا عزت بيه، إنما انت عارف إن أمن البلد فوق كل اعتبار!..

وخرجت الكلمات من بين شفتي عزت مرتعشة باكية:

- يا خسارة.. لكن.. إيه المطلوب!..

- رمزي.. رمزي السيد!..

- ما له؟!..

- فيه احتمال كبير إن عبلة تعدي على جنيف قبل ما تروح وتتصل برمزي!.

- طب ليه؟!..

- رمزي بيشتغل في الاستيراد والتصدير ولازم عنده معلومات!

ولقد كاد رمزي يفقد صوابه في تلك الليلة.. كان مثل مجنون أطلق من عقاله فراح يهلوس.. اجتاحه إحساس طاغ بالذنب.. غير أن «عمر حمدي» استطاع رغم تعبه الشديد وحاجته الأشد إلى النوم، أن يعيده إلى صوابه.. وكان كل المطلوب منه، إذا سألته عبلة عن بعض المعلومات بطريقة أو بأخرى، أن يدلي إليها بمعلومات مزيفة!..

ووافق رمزي..

وذهب عمر إلى الفراش.. وألقى بجسده عليه وأغمض جفنيه.. لكن شيئًا ما أطار النوم من عينيه.. لم يكن ذلك الأرق الذي كان ينتابه كلما وصلت إحدى العمليات إلى ذروتها، بل كان قلقًا غريبًا.. قلق ازداد مع دقات التليفون الرقيقة.. رفع السماعة، فجاءه صوت يعرفه جيدًا:

- رمزي حاول الاتصال بباريس ثلاث مرات.. وبعدين أخذ العربية وطلع على أوتوستراد الغرب!..

لثوان تجمدت كل حواس «عمر».. أيكون قد خُدع كل هذا الوقت، أيكون رمزي واحدًا من الشبكة.. وإلا، فإلى أين هو ذاهب الآن؟!

بعد اثنتي عشرة دقيقة بالضبط، كان صاحب الصوت يفسح المجال خلف عجلة القيادة لعمر حمدي، الذي أطلق للسيارة المرسيدس 450 العنان.. كان مجنونًا.. وكان صاحب الصوت بجواره يصرخ:

- حاتروح في داهية!...

- هو ده الطريق لباريس؟!..

- هو!..

- قبل ما تسافر لازم تأخذ بنزين وزيت!..

- صح!..

- فيه محطة في الطريق!..

- فيه!..

وصرخت عجلات السيارة على أرض الطريق تنهبها نهبًا.. وقبل أن تصل إلى محطة البنزين المضاءة، لمح عمر حمدي سيارة مرسيدس أخرى تغادرها بسرعة.. فصرخ:

هي دي عربية رمزي!..

- هي!..

ليلتها، كادت تحدث كارثة، عندما اقتحمت سيارة عمر الطريق لتوقف سيارة رمزي!..

■ ■ ■

«.. رمزي بك، الدليل الوحيد على إنك عبيط هي دموعك، وأنا إذا كنت أقدر دلوقت آخد معاك إجراء قاسي.. إلا إني باخيرك ما بين حاجتين.. مصر.. أو عبلة كامل!..

حدث هذا في إحدى غرف السفارة المصرية بجنيف، وكان الوقت في الثالثة صباحًا.. وكان رمزي السيد يبكي كطفل. وسؤال واحد يردده بلا توقف: «ليه يا عبلة.. ليه؟!»..

- أصلها طماعة.. طماعة قوي.

■ ■ ■

هبطت إحدى طائرات شركة العال الإسرائيلية مطار باريس، وكانت تحمل راكبًا شديد الأهمية.. وكان هذا الراكب يحمل جواز سفر لا يحمل اسمه الحقيقي.. ولقد استقل هذا الراكب سيارة تاكسي غادرها

في ميدان الكونكورد.. ثم دخل أحد المحال وشرب فنجانًا من القهوة السوداء، وغادر المحل بعد أن نظر في ساعته.. لم يكن يحمل حقيبة، وكان يبدو أنه يعرف باريس جيدًا، وفي أحد المنحنيات قفز إلى سيارة أوتوبيس كانت تدور في المنحنى ببطء، ثم غادرها عند شاطئ السين، ثم استقل «تاكسي» كان يبدو أنه في انتظاره.. وعندما انطلق التاكسي قال السائق:

- هل كانت الرحلة موفقة؟!..

ورد الراكب الغامض:

- لولا بعض الضباط لكان كل شيء على ما يرام!

وبعد عشرين دقيقة بالضبط، كانت عبلة كامل تقدم لهذا الراكب كأسًا من البراندي المعتق، وكانت تستعد لمناقشة الأمر مع أيزاك..

وقبل أن ينتصف الليل، نظر الرجل الغامض في ساعته قائلًا:

- لم يبق سوى ساعة على موعد الطائرة العائدة إلى تل أبيب، ولقد وعدت زوجتي بالعودة هذا المساء، وعلى كلٍّ، فإن الأمر الأخير لك يا أيزاك.. أنت المسئول عن عبلة، غير أن رأيي الشخصي، ألا تسافر عبلة إلى بيروت!..

■ ■ ■

غير أن أيزاك اتخذ قراره أخيرًا، وبعد أسبوع، وعلى مسئوليته الشخصية، بأن تسافر عبلة إلى بيروت لتأخذ الرسالة من المهندس علي شاكر!!

قبل أن تصل الطائرة القادمة من جنيف إلى مطار بيروت بثلاث ساعات، أقلعت من مطار القاهرة الدولي، إحدى طائرات شركة مصر للطيران.. ولم يلحظ أحد أن الطائرة كانت خالية، لم يكن بها سوى ثلاث مضيفات، أقلهن وزنًا كانت تزن تسعين كيلوجرامًا، وتحمل عضلات مصارع.. ولم يكن أحد يعرف: إلى أين؟!..

■ ■ ■

في مطار بيروت كان عمر حمدي يدخل غرفة مدير المطار مع صديق لبناني، ليأخذا إذنًا بدخول إحدى سيارات السفارة المصرية إلى أرض المطار.. بدعوى أن طائرة جنيف تحمل راكبة هي قريبة لعمر حمدي، مريضة بالقلب. وفي شهامة وافق مدير المطار دون تردد. وهو يقول:

- تكرم أخي!..

وصلت طائرة شركة مصر للطيران إلى مطار بيروت قبل عشر دقائق بالضبط من وصول طائرة الإير فرانس القادمة من جنيف.. فتح الباب، ووضع السلم، وبدأت الإجراءات، ولم يغادر الطائرة أحد..

■ ■ ■

وصلت طائرة الإيرفرانس القادمة من جنيف، وفتح الباب، وبدأ الركاب يغادرونها عندما اقتربت سيارة تحمل أرقامًا دبلوماسية لتقف بجوار السلم..

وظهرت عبلة كامل عند قمة السلم.. وراحت تهبط في هدوء.. وما إن وصلت إلى نهاية السلم حتى تقدم منها عمر حمدي:

- آنسة عبلة؟!..

- أفندم!..

- أنا المهندس علي شكري:

وأطلقت عبلة من عينيها نظرة كالرصاص.. فابتسم عمر وهو يقدم لها الصديق اللبناني:

- ابن عمي.. يونس السيد.. سكرتير أول السفارة.. قلنا نوفر عليكي الجمارك.. اتفضلي!..

وعندما وضعت عبلة قدمها داخل السيارة.. كان ثمة رجل من ركاب الطائرة يسرع الخطى نحو الخارج.. وكان يبدو متلهفًا وهو ينظر خلفه كل خطوة.. كانت سيارة السفارة المصرية قد اتخذت مسارًا غريبًا إلى قلب المطار.. إلى حيث كانت تربض طائرة شركة مصر للطيران، التفتت عبلة نحو عمر وقالت:

- إحنا رايحين فين؟!..

- مصر!..

قالها عمر في نفس اللحظة التي وقفت فيها السيارة أمام سلم الطائرة المصرية.. وعند نهايته، كانت مضيفتان تبدوان كجبلين رهيبين تفتحان باب السيارة..

يا للا يا عبلة.. مفيش وقت!..

وفي هدوء شديد، غادرت عبلة السيارة إلى سلم الطائرة.. وكان عمر خلفها.. وبعد أربع دقائق.. كانت الطائرة محلقة في الجو.. وبعد عشر دقائق كان الراكب المتلهف يطلب مكالمة عاجلة جدًّا لباريس..

كانت رقعة الشطرنج أمام أيزاك، وكانت زجاجة الكونياك قد فرغت عندما دق جرس التليفون.. ورفع أيزاك السماعة، وجاءته مكالمة من بيروت.. وما إن استمع إلى الخبر الذي زفَّه إليه صوت الراكب المتلهف، حتى انقبضت ملامحه.. وضع السماعة.. ونظر إلى رقعة الشطرنج. ثم فتح درج مكتبه، وأخرج مسدسًا صوبه إلى رأسه، وأطلق رصاصة واحدة، كان دويها مكتومًا.. ثم سقط.

فتح عمر حمدي باب غرفته بمبنى المخابرات العامة المصرية بالقاهرة وأفسح الطريق قائلًا:

- اتفضلي يا عبلة!..

وما إن خطت عبلة داخل الغرفة حتى صاحت:

هو انت كمان بتلعب شطرنج؟!

وما إن أغلق عمر الباب خلفه، حتى دق جرس التليفون فرفع السماعة:

- آلو.. أيوه.. إيه؟.. معقول.. خسارة!.

ثم وضع السماعة.. فسألته عبلة:

- فيه إيه؟!..

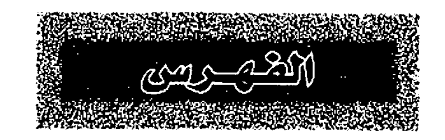
- أيزاك..

شهقت عبلة:

- ما له!..

- انتحر!..

ومد يده إلى إحدى قطع الشطرنج، وألقى بها في سلة المهملات!..



كلمة قبل أن تقرأ الكتاب 5

وسقط القناع عن وجه الغريب 15

«جازية» المصرية 43

القبطان 65

السوداني 87

المجهول 107

الساذج 129

الصعود إلى الهاوية 149

من مؤلفات

الأستاذ
صالح مرسي

بنهضة مصر

- زقاق السيد البلطي، رواية.
- دموع في عيون وقحة
  رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- الصعود إلى الهاوية
  رواية (من ملفات المخابرات المصرية).
- السجين، رواية.

